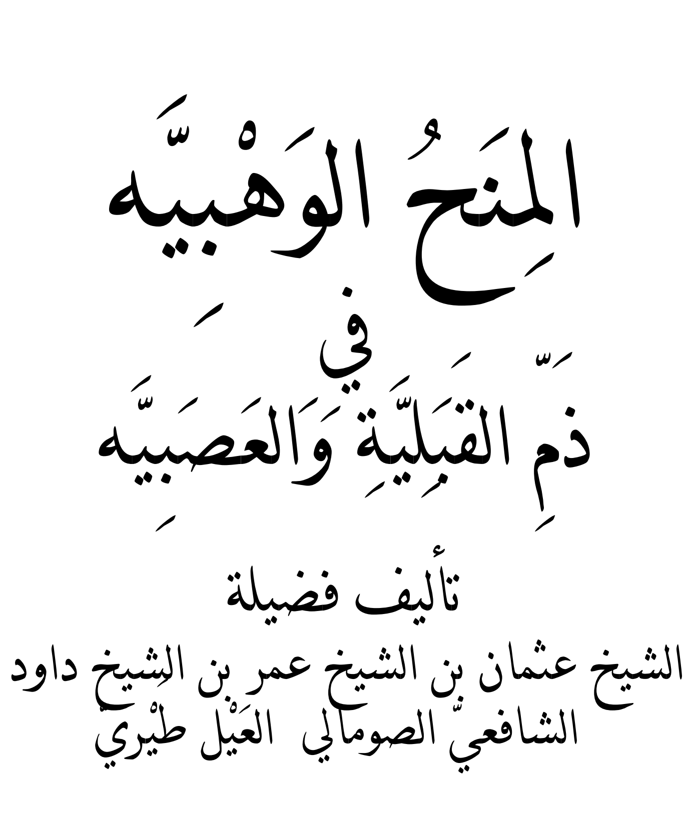


تأليف فضيلة
الشيخ عثمان بن الشيخ عمر بن الشيخ داود
الشافعيّ الصومالي العَيْل طيْريّ

راجعه وصححه الشيخ عبد الناصر علي حسين

الطبعة الثانية ربيع الأول سنة ١٤٢٨هـ

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذه هي الطبعة الثانية لكتاب "المنح الوهّبية في ذم القبلّية والعصبّية" الذي تلقى من القرّاء – والحمد لله- قبولا عظيما وترحيبا كبيرا لمعالجته مشكلة أدّت إلى الواقع الأليم الذي تعيشه الأمة الصومالية وهي العصبّية والقبلّية، وبحثِهِ عن دواء ناجع لهذه المشكلة، فقد نفدت طبعته الأولى ورأيت ضرورة ملحة لإعادة طبعه طبعة ثانية ليعم الانتفاع به.

وتمتاز هذه الطبعة بتهذيب وتنقيح وتقديم وتأخير في بعض المواضع وتصحيح أخطاء وقعت في الطبعة الأولى، وَأَمَلِي كبير في أن تنال الطبعة الجديدة رضا القرّاء لما فيها من تحقيقات مهمة وزيادات مفيدة ويأخذ الكتاب دوره في محاربة القبلّية التي تعتبر أصل البلّية التي حلت بالأمة الصومالية وخلّفته عن ركب الحضارة والتقدم.

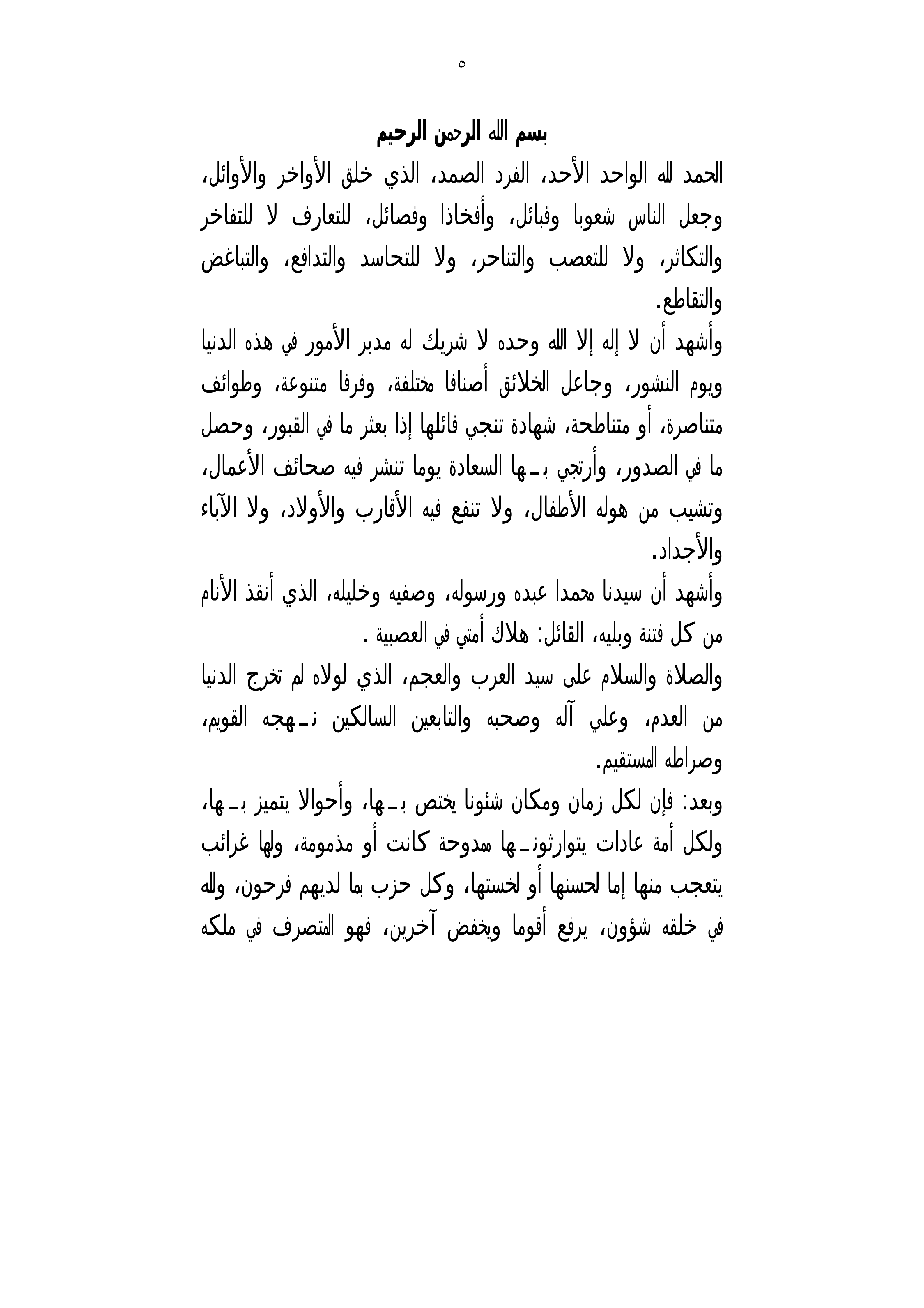
أسأل الله الحليم الكريم رب العرش العظيم أن يتقبل مني هذا الكتاب بفضله وإحسانه وأن ينفع به كل من قرأه وتلقاه بقلب سليم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير

والله ولي التوفيق المؤلف

﴿هَلاكُ أُمَّتِي فِي العَصَبِيَّةِ﴾

حَدِيثٌ شَرِيفٌ

ومن تصانيف المؤلف: "التوضيح في شرح أذكار التسبيح"، و"المنتخب في شرح أوراد مرحب"، و"البرهان في جواز الذكر بلفظ هو للملك الديان"، و"إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين"، و"ترجمة الشيخ ابن حجر الهيتمي"، و"منظومة في التصوف تسمى "المنظومة البهية في معاتبة النفس الأبية والتضرع إلى رب البرية"، و"أنيس الجليس في ترجمة السيد أحمد بن إدريس"، و"التبيين في أدلة التلقين"، و"اللآلي السنيّة في مشروعية مولد خير البرية"، و"النصائح المرسلة إلى طلاب العلم لله والآخرة"، و"المنح الوهبيّة في ذم القبليّة والعصبيّة" وهو الذي بين أيدينا، وقد طبعت هذه الكتب كلها ولله الحمد بدأ وختما .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق الأواخر والأوائل، وجعل الناس شعوبا وقبائل، وأفخاذا وفصائل، للتعارف لا للتفاخر والتكاثر، ولا للتعصب والتناحر، ولا للتحاسد والتدافع، والتباغض والتقاطع.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مدبر الأمور في هذه الدنيا ويوم النشور، وجاعل الخلائق أصنافا مختلفة، وفرقا متنوعة، وطوائف متناصرة، أو متناطحة، شهادة تنجي قائلها إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وأرتجي بها السعادة يوما تنشر فيه صحائف الأعمال، وتشيب من هوله الأطفال، ولا تنفع فيه الأقارب والأولاد، ولا الآباء والأجداد.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، الذي أنقذ الأنام من كل فتنة وبليه، القائل: هلاك أمتي في العصبية .

والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم، الذي لولاه لم تخرج الدنيا من العدم، وعلي آله وصحبه والتابعين السالكين نهجه القويم، وصراطه المستقيم.

وبعد: فإن لكل زمان ومكان شئونا يختص بها، وأحوالا يتميز بها، ولكل أمة عادات يتوارثونها ممدوحة كانت أو مذمومة، ولها غرائب يتعجب منها إما لحسنها أو لخستها، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولله في خلقه شؤون، يرفع أقوما ويخفض آخرين، فهو المتصرف في ملكه

كيف يشاء، وبيده المنع والعطاء، تفرد بالعظمة والكبرياء، ويتفضل بجزيل المواهب على أصفيائه، وينتقم بنكاله من أعدائه، ولا رادّ لقدره وقضائه.

ومما انتشر شره في زماننا القبلّية العمياء، والعصبية الصمّاء، واستحكمت في نفوس الأصاغر والأكابر، وصارت لهم طبعا راسخا ونظاما محترما، وقانونا يُرجَع إليه في تفصيل الخصومات وفرض العقوبات، وترفع الشكاوي والدعاوي إلي زعماء القبيلة وعرفائها، فيحكمون بينهم بما رأوه حلاّ للقضّية وفصلا للخصومة وإن كان مخالفا للشريعة بعيدا عن العدالة، وقد أدى ذلك إلى الفساد وهلاك العباد في كثير من البلاد .

فرأيت أن السكوت في ذلك عجز عن القيام بالواجب، وقصور عن أداء النصيحة، فاستخرت الله تعالى وشاورت الأصدقاء والأحباب في وضع كتاب أوَضّحُ فيه بعض مساوي القبلّية وما تؤدي إليه من العواقب الوخيمة، وأُبينُ فيه موقف ديننا الإسلامي الحنيف وحكمَ شريعتنا المطهرة فيها، فعزمت بعد ذلك على الإقدام بعد الإحجام، وشمرت عن ساعد الجد وطالعت عددا من كتب الأئمة والتقطت منها بعض دررها الكامنة، وجواهرها الغالية، واستخرجت منها النفائس واللطائف، وقّيدت كل مسئلة أراها دواء لداء القبلّية، وسقم العصبية، وإن كان لا ينبغي لمثلي الضعيف أن يحوم حول حمى التأليف ويطمع اقتطاف ثمار التصنيف .

وهذا مع كثرة العوارض والعلائق، وتوالي الهموم والعوائق، لكنني فوضت أمري إلي ربي، وتبرأت من حولي وقوتي، واعترفت بعجزي وذلتي، وتوكلت على الله فإنه الكافي وهو حسبي، واستعنت به في تيسير ما تعسر من أمري، أو يضيق عنه صدري، وأسأل الله العظيم رب العرش

الكريم أن يتقبله مني، ويجعله ذخيرة لي عند اقتراب منيتي، ومؤنسا في وحشتي، ونورا في ظلمات قبري، وأسأله أن ينفع به الإخوان والأحباء وجميع المسلمين، وأن يحسن ختامي وينطق بكلمة الشهادة لساني عند انتهاء أجلي، معتقدا بما انطوت عليه من المعاني [1].

وسميته "المنح الوهبية في ذم القبلية والعصبية" ويتألف من مقدمة وفصول سبعة ومباحث كثيرة وخاتمة وغير ذلك مما ستراه إن شاء الله تعالى .

وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود، عليه توكلت وإليه أنيب ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم .

---

[1] بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، مدبر الخلائق أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه تقريرات لطيفة على كتابي "المنح الوهبية في ذمّ القبلّية والعصبّية" وضعتها لتفسير بعض كلماته وتخريج بعض أحاديثه، وأذكر فيها بعض الفوائد المهمة التي لا يستغنى عنها القارئ، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، ولا حول ولا قوة إلا الله العزيز الحكيم .

مقدمــة

اعلم أن القبلّية بلية، ورزية جلّية، وهي الساحقة الماحقة، والداهية الحالقة، وأم الأزمات المرهقة، وأصل الحروب الأهلية في كثير من البلاد والبوادي، وهي قائدة السفهاء، وسالبة عقل العقلاء، فقلما يملك الإنسان زمام نفسه ويتقيد بالقيود الشرعية بل والعقلية عند هيجان أمواجها، واشتعال نيرانـها، وتأجج حريقها، فإذا دعا داعي القبلّية وصرخ صارخها ونادى بأعلى صوته: ياالقومي وقبيلتي، ويا بني فلان تحرّكت الأعصاب، وهاجت النفوس وطاشت العقول، فتراهم لإجابته مسرعين، ولصيحته ملبين، ولأوامره نافذين بدون تلعثم وتردد وتفكر في العواقب والنتائج، فيقعون في كل واد يهيمون ويتساقطون كالهمج في المهالك، ويخوضون بلا تَثَبتٍ في المعارك، لا يدرون لِمَ يَقْتلون أو يُقتَلون.

ولقد عم شرها في أرضنا الصومالية مدنـها وقراها، وسهولها وجبالها، فاتخذها الناس نظاما وما أسوأه !!! وارتضوا بـها إماما، وزعمائها حكاما، فتفاقمت الأمور، وضاقت الصدور، واغْتُبِطَت القبورُ، وحطّت الفوضى رحالها بساحتها، وامتلكت القيادة والإدارة، فالوطن في يديها، تعبث به وتقلبه كيف شاءت، وتلعب به كما يلعب الصبي بالكرة، فخربت الديار واستبيحت الدماء وانتهكت الحرمات ونـهبت الأموال، وافتعلت الأفاعيل، وذهب بالكلية الحياء والمروءة، فكأن القائل:

مررت على المروءة وهي تبكي   فقلت عَلامَ تَنْتَحِبُ الفـتاةُ

فقالت كيف لا أبكي وأهلي   جميعا دون خلق الله ماتـوا

عنى بزماننا وأهله وقصد بسكان أرضنا، وصار الوطن شامة سوداء في العالم، فالقبلّية هي سبب انـهيار الدولة وسقوطها، وسبب الدمار الشامل، والهلاك العاجل، والتدهور الكامل، الذي حلّ بشعبنا، وفرّق بين جموعنا، وأوقع العداوة والبغضاء بين أبناء وطننا[1]، فكثر الهروب والفرار والخرجم العواصم المدن، والرجوع إلى منازل الآباء وخيامهم، ومساكن الأجداد ومنازل العشيرة ومراتع أنعامهم، ومرابضها ومزارع الأصول وحقولهم، وكثر الهجران من الوطن واللجوء إلى الدول ا لـاورة والبعيدة، فكم من شريد وطريد، وكم من مدينة خاوية على عروشها، وديار ساقطة سقوفها، وكم من قرية ارتحلت عنها سكانـها، فلا ترى فيها إلا كهوفا للسباع وأوكارا للطيور، قال الله سبحانه وتعالى: {**وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا**}. الآية .

واستفاد من ذلك كل عدو لدود، وماكر حسود، فتداعوا من الأنحاء القريبة والبعيدة من أطراف الدنيا، وجاءت كل فرقة ببضاعتها المسمومة وأفكارها المشؤومة لاستئصال هذه الأمة التي ظلمت نفسها وأعطت فرصة الإفساد لأعدائها، فجاءت هيئة التبشير المسيحية ودعاة الصليب بمكايدها، وحيلها ومكرها ودسائسها وخطبها التي تشوّه بـها دين

---

[1] قال عبد العزيز عبد الرحمن قارة في كتابه "الأخُوّة الإيمانية" ص٢٤: من الأسباب الرئيسية لزوال دول وشعوب كثيرة في أمكنة من العالم العنصريةُ والعصبية والتفاخر بالأصل والنسب. ولا ننسى حوادث الصومال حيث إن السبب الرئيسي للحروب الأهلية هناك هو ولاء كل فرد إلى قبيلته، وكل قبيلة تصرّ على أن تسيطر على الدولة، مما نتج عنه قتلُ وموتُ مئاتِ الألوف من الرجال والنساء والأطفال سواء بواسطة الحرب أو بسبب الجوع !!! .

الإسلام وتزدري بـها المسلمين، واستخدمت جميع الوسائل التي ترى من خلالها نجاح دعوتـها وانتشار عقيدتـها وبذلت قصارى جهدها في خديعة البُلْهِ والسخفاء والصبيان والشبان الذين لم يكمل عقلهم ولم تَتِم خبرتـهم، وحملوا كثيرا من هؤلاء إلى أوطانـهم باسم الإنقاذ من الحروب الأهلية والإطعام من الجوع وتوسيع المعيشة، فأفسدت دين كثير من هؤلاء وأخلاقهم وعاداتـهم الإسلامية وعصم الله كثيرا منهم من فتنتهم.

واشتركت في الإعتداء وتخريب الوطن بعض الشركات الأجنبية التي حملت على مراكبها السموم القاتلة والأوساخ الباقية من مستخرجات مصانعها، فدفنتها في البر والبحر، ومن المحتمل أن تكون عاقبة ذلك وخيمة وتورث الكوارث والإبادة، وفناء الخلائق الكثيرة من البشر والحيوانات البرية والبحرية .

وكذلك المطابع التخريبية التي تطبع العملات المزيفة، فقد استخدمتها بعض التجار الأجنبية والوطنية فطبعت لهم الملايين الكثيرة من النقود وأخذوا بـها أموال الناس ظلما واعتداء .

وكذلك انتهز هذه الفرصة البدع والفرق الإسلامية فجاءت من الأفاق بأهوائها المختلفة وأفكارها المتباينة وآرائها المتضاربة ومعتقداتـها المتعارضة، وبذلت كل فرقة في ذلك جهدها وأنفقت أموالا في تنفيذ برامجها ونشر دعوتـها فاختلف الناس حينئذ وانقسمت الأمة وشتت شملها وتفرق جمعها حتى كفّر بعض هذه الطوائف على من سواهم من الطوائف الأخرى، وصار الناس فرقا متناطحة، وشيعا متنافرة ترد كل

فرقة على الأخرى وتدفع عن فكرة فرقتها واعتقاد عصابتها، فضاعت بذلك الوحدة والنهضة الدينية وحراسة القعيدة الإسلامية .

ولم يكن في هذا الوطن اختلاف في الدين والإعتقاد والمذهب بل والقراءة، فقد كانت هذه الأمة كلها مسلمة مائة في المائة، وكانت العقيدة الأشعرية هي العقيدة الوحيدة لها، ومذهب الإمام الشافعي مذهبها، وكانت القراءة على قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري، فلم يكن بين هذه الأمة تفرق واختلاف في ذلك كله من بدء تاريخها إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري تقريبا، ثم ظهرت البدع أول مرة فيما بين الخمسين والستين من هذا القرن وكانت الحكومات المتعاقبة تقف أمام نشاطها وتفرض المراقبة على خطواتـها وكانت تفشي سرا أفكارها وتلقي خفية الدروس إلى أصحابـها.

وطبعا كانت هذه الوحدة الكاملة والاتفاق الكلي في الدين والمذهب والإعتقاد مما يغيظ أعداء الإسلام ويغرس الشحناء والحسد في قلوبـهم، فكانوا متربصين بنا الدوائر مرتقبين يوما تذهب فيه هذه الوحدة والمودة، فتحققت -والأمر لله- أحلامهم ونجحت آمالهم فصار المواطنون كفريسة لا تمتنع من السباع، وسائمة ترعى بلا راع، وظباء متوحشة لا مانع من اقتناصها، فامتدت أطماع الأعداء، وتداعت الدعاة الصليبية من الأرجاء، وجاءت من كل فجّ عميق، ومكان سحيق، وهي ترقص فرحا واستبشارا بما أتيح لها من هذه الفرصة الذهبية فضربت خيامها، وحطت رحالها في ربوع ديارنا، وظنت أنـها تنال بسهولة مرادها، وتظفر أياما

قلائل بمقصودها، لكننا نرجوا الله أن تكون العاقبة على عكس مرادها، ونقيض مظنونـها.

ولم يكن سبب هذا كله إلا سقوط الدولة وسيطرة القبلية وسلطنة العصبية وهذا هو ما كلفني أن أقتحم العقبات وأنفق الساعات في التحذير من العواقب السيئة التي تنتج عن القبلية والعصبية .

الفصل الأول: في العصبية والقبلية والحمية ونحوها

وفيه مباحث ثمانية وخلاصتان وخاتمة وملاحظة

المبحث الأول في تعريف العصبية والقبلية والحمية
المبحث الثاني في ذم العصبية
المبحث الثالث في ذم حمية الجاهلية
المبحث الرابع في أن التفاخر بالآباء من أخلاق الجاهلية
المبحث الخامس في ذم الطعن في الأنساب
السادس في أن العصبية غريزة من غرائز الناس وطبائعهم
المبحث السابع في اتـهام بعض الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم القبلية وبراءته من ذلك كبرائة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام
المبحث الثامن في التحذير عن إساءة الظن إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم .

المبحث الأول: في تعريف العصبية والقبلية والحمية

العصبية مصدر صناعي وهي كما قال ابن منظور في لسان العرب : المحاماة والمدافعة، قال ابن منظور: وتعصبنا له ومعه نصرناه. والتعصب كالعصبية اهـ

وفي القاموس وشرحه: تعصّب: أتى بالعصبية محركة، وهو أن يدعَوَ الرجل إلى نصرة عصبته والتألب[1] معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أومظلومين، وقيل: العصبيّ هو الذي يغضب لعصبته ويحامى عليهم، والتعصب المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له ومعه نصرناه اهـ

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر : العصبيّ هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم، والعصبة الأقارب من جهة الأب لأنـهم يعصبونه ويعتصب بـهم- أي يحيطون به ويشتَدّ بـهم، والعصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة اهـ .

وقال علي قاري في المرقاة في باب المفاخرة والعصبية: [2]وقد يكون بين المفاخرة والعصبية تلازم اهـ .

والعصبية في اصطلاح الشريعة إعانة قومك على الظلم، فقد روى أبو داود في سننه في باب العصبية من كتاب الأدب عن بنت واثلة بن الأسقع أنـها سمعت أباها يقول: قلت: يارسول الله ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم .

---

[1] وفي النهاية: تألبوا أي تجمعوا- وفي القاموس: التألب.ا.تحريض.الفساد .

[2] مرقاة المفاتيح، طبعة باكستان- مكتبة إمدادية ملتان، جـ ٩ص ١٧٨ .

وروى البخاري في الأدب المفرد في باب حب الرجل قومه [1] عن فسيلة[2] قالت: سمعت أبي يقول: يا رسول الله أمن العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم ؟ قال: نعم .

وفي المرقاة في باب المفاخرة والعصبية في الفصل الثاني عن عبادة بن كثير الشامي من أهل فلسطين عن امرأة منهم يقال لها: فسيلة أنـها قالت: سمعت أبي يقول: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يارسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم. رواه أحمد وابن ماجه .

والعصبية تطلق أيضا على التناصر الطائفي والفكري والمذهبي والقطري ونحو ذلك، فيقال: فلان متعصب لمذهب كذا أو لطائفة كذا ونحوها .

والقبلية مصدر صناعي أيضا، والذي يظهر أخذا مما ذكرناه في العصبية أنـها المحاماة والمدافعة عن القبيلة ظلما، وإعانتها عليه، وتستعمل القبلية أيضا بالدفاع عن الفصائل والأفخاذ ونحوها وإعانتهم على الظلم، فهي أخص من العصبّية فإنـها تستعمل للتناصر والتدافع الطائفي والمذهبي ونحوهما كما ذكرناه .

والحمية: قال في لسان العرب : فلان ذو حمية منكرة إذا كان ذا غضب وأنفة، وفي حديث معقل بن يسار: فحمى من ذلك أَنفاً، أي أخذته الحمية وهي الأَنَفَةُ والغيرة اهـ

---

[1] الأدب المفرد، طبعة بيروت، ص١٤٣ .

[2] قال القاري: الفسيلة بفتح الفاء وكسر السين المهملة وفي نسخة بالتصغير .

المبحث الثاني: في **ذم العصبية**

روينا إجازة عن شيخنا العلامة محمد نور بن الشيخ إبراهيم عن عبد الرحمن بن معلم محمود عن أحمد بن حاج أدم عن محمد سراج عن يوسف بن إسماعيل البيروتي عن إبراهيم السقا عن ثعيلب عن أحمد الملوي عن أحمد الجوهري عن عبد الله بن سالم عن البابلي عن سليمان بن عبد الدائم عن الجمال يوسف بن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عن والده عن عبد الكريم بن الفرات عن أبي العباس أحمد بن محمد الجوخي عن الفخر علي بن أحمد البخاري عن أبي حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد البغدادي عن إبراهيم بن محمد بن منصور الكرخي وأبي الفتح مفلح بن أحمد بن محمد الرومي كلاهما عن أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي عن أبي علي محمد بن أحمد بن علي اللؤلؤي عن أبي داود بن الاشعث السجستاني قال: حدثنا ابن السرح حدثنا ابن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن محمد بن عبد الرحمن المكي عن عبد الله بن أبي سليمان عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية [١].

وقال في بذل المجهود في شرح قوله صلى الله عليه وسلم "وليس منا من مات على عصبية": المراد بالموت عليها بأن تكون مضمرة في قلبه، ومرغوبة عنده، وإن لم يدع أحدا ولم يقاتل فيه أحدا .

---

[١] رواه أبو داود في باب العصبية من كتاب الأدب .

وقال في عون المعبود: قوله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى عصبية قال المناوي: أي من يدعو الناس إلي الإجتماع على عصبية وهي معاونة الظالم .

وروى أبو داود أيضا عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُديَ [1] فهو يُنْـزَعُ بذنبه.

وفي رواية أخرى قال ابن مسعود: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبة من أدم فذكر نحوه.

قال في عون المعبود: قال المنذري: الحديث الأول موقوف والثاني مسند .

وفي رواية: مثل الذي يعين قومه على غير الحق كمثل بعير تردى في بئر فهو ينـزع بذنبه[2]

وفي الجامع الصغير نحوه إلا أنه قال: وهو يجر بدل ينـزع، وقال رواه البيهقي عن ابن مسعود.

---

[1] وفي عون المعبود في شرح هذا الحديث: رُدِّي بضم الراء وكسر الدال المشددة وفتح الراء- أي تردى وسقط في البئر فهو ينـزع -بصيغة المهول- أي يخرج ويرفع بذنبه أي يجر من ورائه اهـ

[2] قال الحافظ المنذري: روى هذا الحديث أبو داود وابن حبان في صحيحه ومعناه: أنه وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينـزع بذنبه ولا يقدر على الخلاص .

وروى مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قُتِل تحت راية عمية[١] يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية اهـ

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمّيّة يغضب لعصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاش من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه. وفي بعض طرقه: لا يتحاشى. وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبة ويقاتل للعصبة فليس من أمتي، الحديث.

وروى هذه الأحاديث الثلاثة مسلم في باب ملازمة جماعة المسلمين من كتاب الإمارة.

وروى النسائي في سننه في باب التغليظ فيمن قاتل تحت راية عمية من كتاب تحريم الدم عن أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

[١] قال النووي في شرح هذا الحديث: قوله عمية بضم العين وكسرها لغتان مشهورتان والميم مكسورة مشددة، والياء مشددة أيضا، قالوا: هي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور، وقال إسحق بن راهويه: هذا كَتَقَاُتلِ القَومِ للعصبية. وقال الحافظ السيوطي في شرحه على النسائي: العمية كما في النهاية هو فعيلة من العمى الضلالة كالقتال في العصبية والأهواء. وقال السندي في شرحه على النسائي: العمية الأمر الذي لا يستبين وجهه، قيل: قوله تحت راية عمية: كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل اهـ

من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية [١] ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهدها فليس مني، ومن قاتل تحت راية عمية يدعو إلي عصبة أو يغضب لعصبة فقتل فقتلة جاهلية .

وعن أبي مجلز عن جندب بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل تحت راية عمية يقاتل عصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية اهـ

وقال السندي في شرحه على النسائي: في هذا الحديث أن من قاتل تعصبا لا لإظهار دين ولا لإعلاء كلمة الله وإن كان المعصوب له حقا كان على الباطل اهـ ومثله في المرقاة [٢]

وفي مجمع الزوائد[٣] أن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلاك أمتي في العصبية والقدرية والرواية من غير ثبت [٤] رواه الطبراني .

---

[١] قال السندي أيضا شرح هذا الحديث: قوله ميتة جاهلية بكسر الميم حالة الموت، وقوله جاهلية صفة بتقدير، أي كميتة أهل الجاهلية، ويحتمل الإضافة والمراد: مات كما يموت أهل الجاهلية من الضلال وليس المراد الكفر، والقتلة بكسر القاف الحالة من القتل اهـ

[٢] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح طبعة باكستان، جـ ٧ص٢٠٢ .

[٣] مجمع الزوائد في باب ما جاء فيمن يكذب بالقدر ومسائلهم والزنادقة جـ ٧ص٤١٤ .

[٤] قوله ثبت، بفتح فسكون أي ثابت كما في القاموس وشرحه، وفيه أيضا: الثبت بالتحريك الحجة والبينة اهـ

وفي كنـز العمال في سنن الأقوال والأفعال حديث من اتصل بالقبائل فأعضوه بـهن أبيه ولا تكنوا، رواه ابن أبي شيبة عن أبي [1].

وحديث ستة يدخلون النار بغير حساب الأمراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر والتجار بالكذب والعلماء بالحسد، والأغنياء بالبخل، رواه أبونعيم عن ابن عمر [2].

وحديث من ولي ذا قرابة محاباة وهو يجد خيرا منه لم يجد رائحة الجنة، رواه ابن عساكر عن أبي بكر[3].

وفي مجمع الزوائد في باب "فيمن استعمل على المسلمين أحدا محاباة من كتاب الخلافة" عن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبوبكر رحمه الله حين بعثني إلى الشام: يا يزيد إن لك قرابة عَسيتَ أن تؤثرهم بالولاية، وذلك أكثر ما أخاف عليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم، رواه أحمد وفيه رجل لم يسمّ اهـ

وفي تـهذيب تاريخ دمشق أن أبا مسلم الخولاني قال لمعاوية: يامعاوية إنك لو عدلت بين جميع قبائل العرب ثم ملت على أقلها قبيلة مال

---

[1] كنـز العمال، في فصل ذم أخلاق الجاهلية والتفاخر بالآباء من كتاب الإيمان والإسلام/ قسم الأقوال .

[2] كنـز العمال، في الفصل السادس من كتاب المواعظ والرقائق والحكم/ قسم الأقوال .

[3] كنـز العمال، في الفصل الثاني في الترهيب عن الإمارة من كتاب الإمارة/ قسم الأقوال .

جورك بعدلك، وفيه أيضا وفي سير أعلام النبلاء: إن أبا مسلم قام إلى معاوية فوعظه، وقال: إياك أن تميل على قبيلة فذهب حَيْفُكَ بِعَدْلِك[١] .

الخـلاصة

علم مما ذكرناه أن العصبية مما تـهلك به هذه الأمة المحمدية وقد تحقق ذلك في أمم كثيرة، منها هذا الشعب الذي هلك كثير منه بسببها، فهذه معجزة من معجزات من لاينطق عن الهوي صلى الله عليه وسلم رأيناها بأعيننا، وأخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم أن من دعا إلي العصبية أو قاتل عليها أومات عليها يموت ميتة جاهلية، وأنه كبعير تردي في بئر وأنه ليس من أمته صلى الله عليه وسلم، وكفي بـهذا زاجرا للمتدين الخائف الوجل من هذا الوعيد الشديد، فهذا الذي بينه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عقوبة المتعصب لقبيلته ظلما، الذي يعين لهم ويؤيدهم على الاعتداء والأذية على المسلمين.

فالخطر فيه عظيم، فلا يليق بعاقل أن يتخبط خبط عشواء، ويستجيب كل ناعق داع إلى العصبية العمياء.

فاللبيب يدرك عواقبها السيئة فيتحاشى ويبتعد عنها، وأما الغبي المتهتك فليس له قيد يحبسه ولا وازع يردعه، فيراها شرفا كبيرا ومجدا رفيعا، فيقع في ورطتها بلا تردد وتفكر في عاقبتها ويفتخر بنصره لقبيلته ظالمين كانوا أو مظلومين، فهو نظير القائل:

وننصر مولانا ونعلـم أنـه ... كما الناس مجروم عليه وجارم

---

[١] تـهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ٧ص٣٢٢ وسير أعلام النبلاء، جـ٤ص١٣، في ترجمة أبي مسلم الخولاني .

فلينظر المرء وليختر لنفسه أحد أمرين: إما أن يهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيترك العصبية ويفوز فوزا عظيما، وإما أن يغترّ بما تدعو إليه النفس من الأوهام والتخيلات من تزيينها وادّعائها أن المتعصب عزيز في قومه يناضل عنهم ويحمي شرفهم ببذل نفسه ونفيسه، ولولاذلك لذلّت قبيلته وانحطّت عن منزلتها ومقامها بين الناس وحقرتها القبائل الأخري، ثم يستحق الوعيد الشديد المذكور.

وليعلم المتعصب لقبيلته ظلما أنه بغيض عند القبائل الأخرى بل وعند المنصفين العقلاء من قبيلته أيضا، ولا يمدحه سوى سفهاء قومه، فهل يكون مدحهم هذا عوضا عما يفوته من مودة سائر الناس وثنائهم عليه بالعدل والإنصاف؟ مع ما ينتظره من عقوبة ربه لمخالفته أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يخفى على أحد أنه ليس من العقل السليم أن يسعى الإنسان إلى ما يسخط ربه ويهلك نفسه حالا ومآلا لإرضاء قبيلته واكتساب محبتهم ومدحهم، وفقنا الله بفضله بما يرضاه ويحسن إلينا بجوده وكرمه .

ومن عجيب أمر المتعصب وغريب شأنه أنه يذم المتعصبين من القبائل الأخرى ويبغضهم وينسب إليهم عدم العدالة والإنصاف لميولهم دائما إلى مصالح قبيلتهم ورغباتها، ولا يدري أنه متصف بوصفهم وأن كل لوم يرمي بهم هو موجه عليه إذ ما يكون لأحد النظيرين يكون للآخر لا محالة، فهو حينما يذم القبلّيين الآخرين يذم نفسه.

ومن طبع المتعصب تهمته على كل أحد بالتعصب لقبيلته لأن الإنسان الدنيئ يزن الناس بوزن نفسه ويتهمهم بمثل وصفه فيقلّ بذلك زملاؤه

وأصدقاؤه وثقته على الناس، ويكثر شكه وحذره منهم فتراه مستعدا للدفاع عما لا حقيقة له، فحياته في ضيق وحرج فلا راحة له إلا إذا كان يمرح أو يلهو مع أبناء قبيلته وعشيرته .

خاتـمة

قد يتخيل مما ذكرناه أن كل دفاع للقبيلة مذموم شرعا، وليس كذلك بل هو في بعض الحالات جائز أو مطلوب، كما إذا كانت مظلومة ظلما محققا، فالنصر لها والدفاع عنها جائز، لأن نصر المظلوم جائز بل واجب عند الاستطاعة سواء كان المظلوم من قرابتك أو من غيرها، فقد روى أبو داود عن سراقة بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال: خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم [١].

بل يحتمل أن يكون في الدفاع عنها فضيلة أخرى وهي فضيلة البر والإحسان إليهم المأمور بـهما شرعا، كما يقال في الصدقة على القرابة: إن فيها صلة وصدقة، وهذا إذا كان قتاله ودفاعه عن القرابة لأجل الله تعالى وامتثالا لأمره لا للحمية والأنفة لقبيلته، وأما إذا كان الباعث والحامل على القتال الحمّيةَ والعصبّيةَ فلا يكون قتالا على الحق، بل يكون على الباطل وإن كان نصرا للمظلوم.

---

[١] رواه أبو داود في باب العصبية من كتاب الأدب، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد في باب المدافع عن قومه من كتاب الأدب بلفظ خير القوم المدافع عن قومه ما لم يأثم. وقال رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم.

وهذا لأن الجزاء يترتب على النية والقصد، وأن لكل امرء ما نوى، فقد يختلف الجزاء باختلاف النيات مع اتحاد الأعمال، فيثاب شخص من عمل ويعاقب آخر على نفس ذلك العمل، وهذا معروف مشهور .

فالحاصل أن المدافع عن عشيرته المظلومة بنية النصر للحق ودفع البغي والظلم عن المسلم المظلوم يكون مثابا مأجورا إن شاء الله تعالى لحسن نيته وقصده، وإن كان قصده الحمية والأنفة لعشيرته فله جزاء ما نوى، وهذه المسئلة نفسية دقيقة لا يتنّبه لها كثير من الناس فليتفطن لها وليعضّ عليها بالنواجد، وقد نّبه عليها السندي وذكرنا عبارته آنفا، فليحذر من يدافع عن عشيرته المظلومة أن يكون الحامل والباعث على دفاعه التشفيَ من الغيظ والتعصب والأنفة لقبيلته، وليجتهد على خلوص نيته لإعلاء كلمة الحق وإزالة الظلم والفساد لأجل الله تعالى.

وقال المناوي في شرحه على الجامع الصغير قوله صلى الله عليه وسلم: ما لم يأثم أي ما لم يظلم الدافع في دفعه بأن تعدى الحدّ الواجب في الدفع كأن يتحامل على المدفوع لنحو عصبية أو ضغينة، وَنص على الإثم وإن كان معلوما ليكون مستحضرا في الذهن إذ الحمية قد تذهب عنه اهـ .

واعلم أنه كما يلزم النصر للمظلوم كذلك يلزم النصر للظالم أيضا، ونصره منعه عن الظلم والبغي، سواء كان الظالم من قبيلتك أو من غيرهم لقوله صلى الله عليه وسلم: ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره [1].

---

[1] رواه مسلم وسيأتي قريبا إن شاء الله .

وقال في حديث آخر: أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال: تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره، [١].

وفي رواية: أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، إن يك ظالما فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوما فانصره [٢]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان [٣]. والظلم من المنكر فتجب إزالته وإن كان من أقرب الناس إليك فاعلم هذا واعمل به، والله أعلم .

---

[١] رواه أحمد في مسنده والبخاري في المظالم، والترمذي في الفتن عن أنس، كما في الجامع الصغير وشرحه للمناوي.

[٢] رواه الدارمي وابن عساكر عن جابر، كما في الجامع الصغير .

[٣] رواه مسلم .

المبحث الثالث: في **ذم حمية الجاهلية**

قال الله تعالى: {**إذجعل الذين كفروا** في **قلوبهم الحمية** حمية **الجاهلية**}

قال القرطبي في تفسيره: قيل: الحمية الجاهلية أنهم قالوا: قتلوا-أي المسلمون- أبنائنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا-مكة- واللات والعزي لا يدخلوها أبدا.

قال تعالى: {**ياءيها الذين أمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين**}.

وقال القرطبي: نزلت هذه الأية في يهودي أراد تجديد الفتنة بين الأوس والخزرج بعد انقطاعها بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس: كان بين الأوس والخزرج قتال وشر في الجاهلية فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض فأُتِيَ النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فذهب إليهم فنزلت هذه الأية: **{وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله** – إلي **فأنقذكم منها}**

وقال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقبح أولا ولا أحسن آخرا من ذلك اليوم.

وفي تفسير النسفي أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إليهم قال: أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألف بينكم،

فعرف القوم أنـها نزغة من الشيطان فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا باكين فنـزلت الآية .

وفي مجمع الزوائد[١] عن أنس بن مالك قال: كان الأوس والخزرج حيين من الأنصار، وكان بينهما عداوة في الجاهلية، فلما قدم عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب ذلك وألف الله بين قلوبـهم، فبينا هم قعود في مجلس لهم إذ تمثل رجل من الأوس ببيت فيه هجاء الخزرج، وتمثل رجل من الخزرج ببيت فيه هجاء الأوس، فلم يزل هذا يتمثل ببيت وهذا يتمثل ببيت حتى وثب بعضهم إلى بعض وأخذوا أسلحتهم وانطلقوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُنزِلَ الوَحْيُ[٢] فجاء مسرعا قد حسر عن ساقيه فلما رآهم ناداهم: **{ياء يها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}** حتى فرغ من الآيات، فوحّشوا[٣] بأسلحتهم فرموا بـها واعتنق بعضهم بعضا يبكون. رواه الطبراني في الصغير، وفيه غسان بن الربيع وهو ضعيف .

وروى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: كنا في غزاة[٤] فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار،

---

[١] مجمع الزوائد في باب ما جاء في الاصلاح بين الناس من كتاب الأدب.

[٢] وفي نسخ وأنزل الحي، ثم رأيت في المعجم الصغير جـ١ص٢١٦- وأنزل الوحي- فصححناه منه .

[٣] فوحّشوا في القاموس وشرحه: وحش بثوبه وبرمحه رمى به مخافة أن يدرك ليخفف عن دابته كوحّش مشددا اهـ فقوله: فرموا بـها- تفسير قوله: فوحّشوا، والله أعلم .

[٤] هي غزوة بني المصطلق وهي كما في البخاري غزوة المُرَيْسِيْع .

وقال المهاجري: ياللمهاجرين فسمّعها الله رسوله صلى الله عليه وسلم، قال: ما هذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوها فإنـها منتنة. الحديث .

ورواه البخاري في باب ما ينهى من دعوى الجاهلية من كتاب المناقب عن جابر أيضا، وفيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوها فإنـها خبيثة .

ورواه مسلم في باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما من كتاب البر والصلة والأدب بطرق عن جابر أيضا قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ماهذا دعوى أهل الجاهلية!!؟ قالوا: لا يارسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر، قال: فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما، إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره .

وفي طريق آخر عن جابر بن عبد الله أيضا قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في عزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: دعوها فإنـها منتنة، فسمعها عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلي المدينة

ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

قال النووي في شرح هذا الحديث: أما تسميته صلى الله عليه وسلم ذلك دعوى الجاهلية فهو كراهية منه لذلك فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتـها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل فجاء الإسلام بإبطال ذلك وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما وألزمه مقتضى عدوانه كما تقرر من قواعد الإسلام. وأما قوله صلى الله عليه وسلم في آخر هذه القضية: لا بأس فمعناه لم يحصل من هذه القضية باس مما كنت خفته، فإنه صلى الله عليه وسلم خاف أن يكون حدث أمر عظيم يوجب فتنة وفسادا، وليس عائدا إلى رفع كراهية الدعاء بدعوى الجاهلية [1] اهـ

وقوله فكسع أحدهما الآخر- أي ضرب دبره وعجيزته بيد أو رجل أو سيف وغيره. وقوله صلى الله عليه وسلم دعوها فإنـها منتنة- أي قبيحة كريهة مؤذية اهـ

وقال السيوطي في "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" في تفسير سورة المنافقين: أخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معسكرا وأن رجلا من قريش كان بينه وبين

---

[1] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في باب ما ينهى من دعوى الجاهلية من كتاب المناقب: عُرف من هذا أي من قوله لا بأس: أن الاستغاثة ليس حراما وإنما الحرام ما يترتب عليها من دعوى الجاهلية .

رجل من الأنصار كلام حتى اشتد الأمر بينهما، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي، فخرج فنادى: غلبني على قومي من لا قوم له، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ سيفه ثم خرج عامدا ليضربه، فذكر هذه الآية **{يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا** بين **يدي الله ورسوله}** فرجع حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما لك ياعمر؟ قال: العجب من ذلك المنافق، يقول: غلبني على قومي من لا قوم له، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ [١].

وفي مشكاة المصابيح في كتاب الإمارات والقضاء في الفصل الأول: عن الحرث الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم. رواه أحمد والترمذي .

قال علي بن سلطان قاري في شرحه: المعنى من نادى في الإسلام بنداء الجاهلية، وهو أن الرجل منهم إذا غلب عليه خصمه نادى بأعلى صوته قومه: يا آل فلان فيبتدرون إلى نصره ظالما كان أو مظلوما جهلا منهم وعصبية. وقوله: من جثا جهنم- بضم الجيم مقصورا أي من جماعاتـها- جمع جثوة بالحركات الثلاثة وهي الحجارة المجموعة [٢]

---

[1] هو بعض حديث طويل .

[2] مرقاة المفاتيح، طبعة باكستان، جـ ٧ص٢١٦ .

وفي مجمع الزوائد أيضا [(١)] عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: النميمة والشتيمة والحمية في النار، ولا يجتمعن في صدر مؤمن. رواه الطبراني [(٢)]

ملاحظـة

ذكرنا أن مناداة القبائل لإثارة الفتن بينهم وإغراء بعضهم على قتال بعض من دعوى الجاهلية وحمّيتها وأنه صلى الله عليه وسلم قال: إنـها منتن، وإنـها خبيثة، فعجبا لمن يعتقد بعد ذلك أنـها طيبة مليحة، فمتى زال النتن والخبث ومتى انقلبت الحقائق وتغيرت الأمور وصار الخبيث طَيِّبًا والمنكر معروفا، أَوَحْيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كلا بل الأشياء باقية على ماكانت عليه في عهده صلى الله عليه وسلم، فلم يكن تحليل شيء كان حراما قبل، ولن يكون، فمن يدعو الناس إلى محاربة القبائل فهو يدعوهم إلى ما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أنه خبيث منتن، فليتفطن من كان يؤمن بالله وبرسوله وليتفكر في مصلحة نفسه حالا ومآلا، هل هي أن يهتدي بـهدي من هو أشفق وأرحم له من قرابته وقبيلته الذي سماه الله رءوفا رحيما بالمؤمنين أو أن ينقاد لتسويلات دعاة الحمية ويستجيب نعيق دعوى الجاهلية؟!!.

ولا شك أن من الحماقة والوقاحة أن تسخط ربك بإرضاء الدعاة إلى القبلية، وأن تعصي من يدعوك إلى دار السلام والإكرام، وتطيع من

---

[١] مجمع الزوائد في باب ما جاء في الغيبة والنميمة من كتاب الأدب جـ٨ص١٧٢.

[٢]قال الهيثمي رواه الطبراني من رواية محمد بن يزيد بن يسار عن أبيه، وكلاهما ضعيف وقد وثقا .

يدعوك إلى دار العذاب والانتقام. نسأل الله السلامة والتوفيق لما فيه رضاه .

المبحث الرابع: في **أن التفاخر بالآباء من أخلاق الجاهلية**

ومن الأخلاق التي يتخلق بـها المتعصبون التفاخر والتعاظم بالآباء والأجداد، فيذكرون محاسن أصولهم من شجاعة وكرم وفصاحة ورئاسة وأمانة وإصابة في الرأي وغير ذلك من كل ما يعتقدونه مجدا وشرفا لهم، وكثيرا ما يسبّب ذلك التشاتم والتّسابب بل وقتالا بين القبائل فيهلك فيه الخلائق، وقد كان في الجاهلية موسم عظيم بسوق "عكاظ" تجتمع فيه القبائل للتنافس بالفصاحة والخطب، والأناشيد بالأشعار، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم نـهى عن التفاخر بالآباء والأجداد، وأنزل الله في ذلك قرآنا كريما وبّين لنا أن أكرم الناس عنده تعالى أتقاهم، لا أكثرهم نفرا وجنودا، وأولادا وأموالا، ولا أشدهم قوة ومنعة، ولا أبـهجهم حسنا وجمالا، وغير ذلك مما يفتخر به الناس عادة وطبعا.

وقال ابن كثير في تفسير سورة التكاثر : قال ابن أبي حاتم: **{ألهاكم التكاثر}**- نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان؟ وقال الآخرون: مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله {**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**}.

وفي المدارك والمَحَلى: حتى زرتم المقابر حتى عددتم من في المقابر من موتاكم تكاثرا .

وروى أبو داود في باب التفاخر بالأحساب من كتاب الأدب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد أذهب عنكم عبية[1] الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[2] التي تدفع بأنفها النتن .

وروى الترمذي في تفسر سورة الحجرات عن ابن عمر قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة فقال: ياءيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان، بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: **{ياءيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير}**.

---

[1] العبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة المشددة وفتح المثناة التحتية المشددة- أي فخرها وتكبرها ونخوها، قال الخطابي والمنذري: العبية الكبر والنخوة والفخر .

[2] وفي عون المعبود شرح سنن أبي داود جـ١٤ص١٦: الجعلان بكسر الجيم جمع جُعل بضم ففتح: دويبة سوداء تدير الخراء بأنفها. والنتن: العذرة، قال العلامة الدميري في حياة الحيوان: الجعل كصرد ورطب وجمعه جعلان بكسر الجيم والعين ساكنة وهو يجمع الجعر اليابس ويدخره في بيته وهو دويبة معروفة شديدة السواد في بطنه لون حمرة يوجد كثيرا في مراح البقر ومواضع الروث، ومن شأنه جمع النجاسة وادخارها، ومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب فإن أعيد إلى الروث عاش. ومن عادته أنه يحرس النائم فمن قام لحاجته تبعه وذلك من شهوته للغائط لأنه قوته اهـ

ورواه الترمذي أيضا في باب فضل الشام واليمن من كتاب المناقب ولفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل من الجعل الذي يدهده الخراء[1] بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب .

وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب: روى هذا الحديث البيهقي بإسناد حسن اهـ

وقال علي قاري في المرقاة في شرح هذا الحديث جـ٩ص١٨٣: والحاصل أنه صلى الله عليه وسلم شبه المفَتخِرين بآبائهم الذين ماتوا في الجاهلية بالجعل، وآبائهم المفَتخَرَ بـهم بالعذرة، ونفس افتخارهم بـهم بالدهْدَةِ بالأنف اهـ .

وقال في عون المعبود: في مسند أبي داود الطيالسي وشعب الإيمان عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تفخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فو الذي نفسي بيده لما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الدين ماتوا في الجاهلية [2]

---

[1] قال القاري في المرقاة جـ٩ص١٨٣: الخرا بفتح الخاء والراء مقصورا، وفي نسخة بالمد، وفي نسخة مصححة بكسر الخاء ممدودا هو العذرة اهـ

[2] عون المعبود جـ١٤ص١٧ .

وفي المشكاة في باب المفاخرة والعصبية في الفصل الثاني عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهـن أبيه ولا تكنوا. رواه في شرح السنة [١]

وفي البداية والنهاية[٢] أن عمرو بن العاص افتخر بأبيه على عثمان بن عفان وأنه كان أعز منه، فقال له عثمان: دع هذا فإنه من أمر الجاهلية.

وفي مجمع الزوائد في باب النوح من كتاب الجنائز عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث لايزلن في أمتي حتى تقوم الساعة النياحة والمفاخرة في الأنساب والأنواء. رواه أبو يعلى والبزار ورجاله ثقات .

وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي عقبة وكان مولى من أهل فارس قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أُحُداً فضربت رجلا من المشركين فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلا قلت: خذها مني وأنا الغلام الأنصاري. رواه أبو داود [٣].

---

[١] قال علي قاري في المرقاة في شرح هذا الحديث، جـ٩ص١٨٦: قوله من تعزى أي انتسب، وقوله بعزاء الجاهلية- بفتح العين أي نسب أهلها وافتخر بآبائه وأجداده، وقوله فأعضوه بتشديد الضاد من أعضضت الشيء والعض أخذ الشيء بالأسنان، وقوله بهـن أبيه بفتح الهاء وتخفيف النون كناية عن الفرج كما في النهاية، أي قولوا له: أعضض بذكر أبيك أو إيره أو فرجه، وقوله ولا تكنوا بفتح أوله وضم النون أي لا تكنوا بذكر الهن عن الإير بل صرحوا له بآلة أبيه التي كانت سببا فيه تأديبا وتنكيلا اهـ

[٢] البداية والنهاية عند ذكر مقتل عثمان سنة ٣٥ .

[٣] رواه أبو داود في باب العصبية من كتاب الأدب .

قال القاري في شرح هذا الحديث: أي إذا افتخرت عند الضرب فانتسب إلى الأنصار الذين هاجرت إليهم ونصروني، وكانت فارس في ذلك الزمان كفارا فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنتساب إليهم وأمره بالانتساب إلى الأنصار ليكون منتسبا إلى أهل الإسلام. وفيه إشعار بأن الصحابة مما عدا المهاجرين قد يطلق عليهم الأنصار وليسوا بمخصوصين بأهل المدينة كما يتوهم، وبـهذا يحصل العموم والشمول للصحابة في قوله تعالى: {**من المهاجرين والأنصار**} اهـ.

وفي كنـز العمال عن فضلة الغفاري قال: خرج عمر بن الخطاب فسمع رجلا يقول: أنا ابن بطحاء مكة فوقف عليه عمر فقال: إن يكن لك دين فلك كرم وإن يكن لك عقل فلك مروءة وإن يكن لك مال فلك شرف وإلا فأنت والحمار سواء، رواه الدينوري، والعسكري في الأمثال[١]

وفي الكنـز أيضا عن عمر أنه استأذن عليه رجل فقال[٢]: استأذنوا لابن الأخيار فقال عمر: ائذنوا له فلما دخل قال: من أنت ؟ فقال: أنا ابن فلان بن فلان بن فلان فعدّ رجالا من أشراف الجاهلية، فقال عمر: أنت يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؟ قال: لا، قال: ذاك ابن الأخيار، فأنت ابن الأشرار إنما تعد على رجال أهل النار، رواه الحاكم[٣].

---

١ كنـز العمال، في فصل ذم أخلاق الجاهلية من كتاب الإيمان والإسلام/ قسم الأفعال .

٢ قوله فقال أي الرجل المستأذن، ويعني ابن الأخيار نفسه .

٣ نفس المصدر السابق .

وما زال الناس يتفاخرون بشرف آبائهم ومجد أسلافهم، سلفا وخلفا، جاهلية وإسلاما، ومن ذلك ما قاله الفرزدق[١] يخاطب جريرا:

أولئك أبآئي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المامع .

ويفتخر بشرف الأصول غالبا الوضيع الذي لم يجد لنفسه شرفا يفتخر به مع منافسيه، فيقول: كان أبي كذا وكذا، وكان جدي كذا وكذا، ليغطي بذلك رعونته وانحطاط منـزلته، ويستتر به عن اطلاع نقصه وعيوبه، فالتفاخر بالأصول أمارة الدناءة، وعلامة الرذالة غالبا، فإن من اكتفى بشرف نفسه لا يحتاج إلى الاعتماد بشرف الأباء والأمهات، والأعمام والأخوال .

والشرف الحقيقي هو ما يتصف به الإنسان من الأخلاق الحسنة والأوصاف الشريفة، ولا يخفى أن الجبان لا تنفعه في ميدان القتال شجاعةُ أبيه وجده، ولا تنفع الجاهل في المباحثة والمناظرة مع العلماء معرفة أجداده وآبائه، وهكذا كل وصف جميل في الأصول لا ينفع الفروع عند احتياجهم إلى ذلك الوصف، فالمشغول بالافتخار يضّيع وقته بما لا طائل تحته، ويفني ساعات من عمره بما لا يجديه حالا ومآلا، وقد أجاد ابن الوردي حيث يقول في لاميته:

لا تقل أصلى وفصلى أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل
قيمة الإنسان ما يحسنـه أكثر الإنسان منه أو أقـل

---

[١] وفي سير أعلام النبلاء: الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة البصري، شاعر وقته، نظمه في الذروة، مات سنة ١١٠ اهـ وكان بينه وبين جرير بن عطّية ما كان من التنافس والتفاخر .

وفي شرحه فتح الرحيم الرحمن: الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية، وقالوا: شرف الإنسان بفضله لا بأصله، وجلالته بأدبه لا بنسبه، وقالوا: الشرف بالفضل والأدب، لا بالأصل والنسب، فافتخر بالعلوم العالية لا بالعظام البالية، وقالوا: من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه اهـ

المبحث الخامس: في **ذم الطعن** في **الأنساب والتعيير بـها**

ذكرنا أن من طبع المتعصبين الافتخار بالآباء والأجداد، ومن طبعهم أيضا الطعن في أنساب منافسيهم من القبائل والفصائل الأخرى، فيذكرون مساويهم ومعايبهم احتقارا وازدراء لهم، وينسبون إليهم كل رذيلة ونقيصة لَيحُطوْا منـزلتهم، وَيُظهْروا علوهم وفوقّيتهم عليهم، وهذا الطعن حرام شرعا لما فيه من ثَلْبِ عِرْضِ المسلم وَتَأذْيِه بذلك، بل هو من الكبائر، فقد قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: الكبيرة الرابعة والتسعون بعد المائتين الطعن في النسب الثابت في ظاهر الشرع، فَعَدهُ من الكبائر .

وقال صلى الله عليه وسلم: شعبتان لا يتركهما أمتي النياحة والطعن في الأنساب. رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة. [١]

وروى الإمام مسلم في صحيحه في باب اطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب من كتاب الإيمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إثنتان في الناس هما بـهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميتِ.

قال الإمام النووي في شرحه على مسلم: في هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة، وقد جاء في كل واحد منهما نصوص معروفة، والله أعلم اهـ .

---

[١] الأدب المفرد في باب الطعن في الأنساب.

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونـها الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والإستسقاء بالنجوم والنياحة .[١]

وفي سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي [٢] أن كريمة بنت الحسحاس قالت: سمعت أباهريرة في بيت أم الدرداء يقول: ثلاث هن كفر النياحة وشق الجيب والطعن في النسب اهـ .

وهذا الحديث موقوف لكنه كالمرفوع لأنه مما لا مجال له في الرأي .

وقال القرطبي في تفسيره: اختلف في سبب نزول قوله تعالى: **{ياءيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم}** فقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن شماس، كان في أذنه وقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه فربض كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما، فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا ففسحوا له حتى انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبينه وبينه رجل فقال له: تفسح، فقال الرجل: قد وجدت مجلسا فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مغضبا ثم قال: من هذا؟ قالوا:

---

[١] رواه مسلم في باب تشديد النياحة من كتاب الجنائز.

[٢] سير أعلام النبلاء في ذكر ترجمة أبي هريرة. وقال المعلق على "السِيَر": هذا الحديث في تاريخ ابن عساكر جـ ١٩ص٢/١٠٦ .

فلان، فقال ثابت:ابن فلانة يعيره بـها، يعني أمّاً له في الجاهلية فاستحيى الرجل فنـزلت اهـ.

وفي النسفي: يريد أمّاً كان يعير بـها في الجاهلية فخجل الرجل فنـزلت الآية فقال ثابت: لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدا اهـ.

وروى البخاري في صحيحه في باب المعاصي من أمر الجاهلية من كتاب الإيمان عن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة(١) وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم(٢) جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم.

ورواه البخاري أيضا في باب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: العبيد إخوانكم من كتاب العتق، ورواه البخاري أيضا في الأدب المفرد في باب "سباب العبيد"، وقال الحافظ في الفتح: وفي رواية قلت له: ياابن السوداء.

ورواه مسلم في باب صحبة المماليك من كتاب الأيمان بطرق كثيرة، وفي بعضها أن أباذرّ قال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمّه أعجمية فعيرته بأمّه فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيت

---

[1] قال الحافظ في فتح الباري في شرح هذا الحديث: الحلة في اللغة ثوبان من جنس واحدا .

[2] قال الحافظ في الفتح جـ ٥ص٢١٥: الخَوَل بفتح المعجمة والواو هم الخدم .

النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، قلت: يا رسول الله من سبّ الرجال سَبوْا أباه وأمه، قال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية. الحديث. وزاد مسلم في بعض طرقه بعد قوله: إنك امرؤ فيك جاهلية، قال: قلت: على حال ساعتي من الكِبر، قال: نعم، وفي رواية أخرى: نعم على حال ساعتك من الكِبر .

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: قوله صلى الله عليه وسلم إنك امرؤ فيك جاهلية أي هذا التعيير من أخلاق الجاهلية، ففيك خلق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم. ففي الحديث النهي عن التعيير وتنقيص الآباء والأمهات، وأنه من أخلاق الجاهلية. ومعنى كلام أبي ذرّ -من سبّ الرجال سّبوا أباه وأمه- الإعتذار عن سّبه أم ذلك الإنسان، يعني أنه سّبني ومن سبّ إنسانا سبّ ذلك الإنسان أبا السابّ وأمّه، فأنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هذا من أخلاق الجاهلية. وإنما يباح للمسبوب أن يسب الساب نفسه بقدر ما سّبه ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه انتهى ما في شرح مسلم للنووي بتصرف يسير .

وقال الحافظ العسقلاني في الفتح[1] في شرح قوله فعيرته بأمه: يظهر لي أن ذلك كان من أبي ذر قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك خصلة من خصال الجاهلية باقية عنده، فلهذا قال المؤلف أي البخاري في الأدب: قلت: على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: نعم، كأنه تعجب من خفاء ذلك عليه مع كبر سنه فبين له كون هذه الخصلة مذمومة شرعا اهـ .

---

[1] فتح الباري جـ ١ص١١٨ .

وفي مجمع الزوائد[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سببت رجلا في الإسلام بأم له في الجاهلية فاستعدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فيك شعبة من الكفر، فلما ذكر الكفر اضطربت رجلاي، فقلت: يارسول الله والذي بعثك بالحق لا أسبّ مسلما بعده أبدا اهـ[٢].

وفي مجمع الزوائد[٣] عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم موليان حبشي وقبطي فاستبّا والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع، فقال أحدهما لصاحبه: يا حبشي، وقال الآخر: يا قبطي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقولا هذا إنما أنتما رجلان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط نحوه [٤]

وفي مجمع الزوائد أيضا[٥] عن سمرة بن جندب قال: نـهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسب وقال: إن كان أحدكم سابا صاحبه لامحالة فلا يفتر عليه ولا يسب والديه ولا يسب قومه، ولكن إن كان يعلم ذلك فليقل: إنك بخيل أو ليقل: إنك لجبان، أو ليقل: إنك لكذوب، أو ليقل: إنك لؤوم. رواه الطبراني والبزار [٦].

---

[١] مجمع الزوائد في باب من يعير بالنسب وغيره من كتاب الأدب .

[٢] قال الهيثمي: فيه يعقوب بن محمد الزهري، وثقه ابن حبان وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات.

[٣] المرجع السابق .

[٤] قال الهيثمي: وفي إسنادهما يزيد بن أبي زياد وهو على ضعفه حسن الحديث .

[٥] مجمع الزوائد في باب كيف يشتم إن شتم أحدا من كتاب الأدب .

[٦] قال الهيثمي: وإسناد البزار فيه متروك، وفي إسناد الطبراني مجاهيل .

وفي مجمع الزوائد أيضا [١] عن جنادة بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ثلاث من أمر الجاهلية لم يدعهن أهل الإسلام أبدا، الاستمطار بالكواكب وطعن في النسب والنياحة على الميت. رواه البزار والطبراني في الكبير من طريق مصعب بن عبيد الله بن جنادة عن أبيه عن جده، ولم أجد من ترجم مصعبا ولا أباه [٢].

وعن عوف بن مالك المزني قال: قال رسو ال صلى الله عليه سلم: ثلاث من أمر الجاهلية لا يدعهن الناس أو لا يتركهن الناس، الطعن في النسب والنياحة وقولهم إنا مطرنا بنوء كذا ونجم كذا. رواه البزار والطبراني في الكبير. وفيه كثير بن عبد الله المزني وهو ضعيف.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أربع في أمتي ليس هم بتاركيها الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والنياحة، تبعث يوم القيامة النائحة إذا لم تتب عليها درع من قطران. قلت هو في الصحيح باختصار. رواه البزار وإسناده حسن.

وعن العباس بن عبد المطلب قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: ياعباس ثلاث لا يدعهن قومك الطعن في النسب والنياحة والاستمطار بالأنواء. رواه الطبراني في الكبير وفيه الحسن بن دينار وهو ضعيف .

---

[١] مجمع الزوائد في باب النوح من كتاب الجنائز .

(٢) قال محقق مجمع الزوائد عبد الله بن محمد الدرويش: ترجمهما ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، والبخاري في التاريخ الكبير ولم يذكرا جرحا ولا تعديدلا اهـ

وعن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث من الجاهلية الفخر في الأنساب، والطعن في الأحساب، والنياحة. رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الغفور أبو الصباح وهو ضعيف .

وفي الترغيب والترهيب [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة من الكفر بالله [٢] شق الجيب والنياحة والطعن في النسب. رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وفي رواية لابن حبان: ثلاثة هي الكفر. وفي آخرى: ثلاث من عمل الجاهلية لايتركهن أهل الإسلام، فذكر الحديث .

وما زال العرب يحقّر بعضهم بعضا بالآباء والأمهات ويزدريه بالأنساب في الجاهلية والإسلام، ومن القبائل التي ُيحَقّرونـها باهلةُ، قال الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء[٣]: باهلة قبيلة منحطة بين العرب، قال الشاعر:

ولو قيل للكلب ياباهلي   عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقال الآخر:

وما ينفع الأصل من هاشم   إذا كانت النفس من باهله

قيل: إن قتيبة بن مسلم الباهلي قال لهبيرة: أي رجل أنت لولا أن أخوالك من سلول فلو بادلت بـهم، قال: أيها الأمير بادل بـهم من شئت وجنبني الباهلة .

---

(١) الترغيب والترهيب في باب النياحة على الميت من كتاب الجنائز، جـ٤ص٣٤٩ .

(٢) أي من أفعال الكفر بالله كما تفسره رواية ثلاث من عمل الجاهلية الآتية .

(٣) سير أعلام النبلاء في ترجمة قتيبة بن مسلم الباهلي، جـ ٤ص٤١٠ .

وقيل للأعرابي: أيسرك أنك باهلي وتدخل الجنة؟ قال: إي والله بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي.

ولقي أعرابي آخر فقال: ممن أنت؟ قال: من باهلة، فرثى له، فقال: أزيدك إني لست من أنفسهم بل من مواليهم، فأخذ الأعرابي يقبل يديه ويقول له: ما ابتلاك الله بـهذه الرزية إلا وأنت من أهل الجنة.

توفي قتيبة سنة ٩٦ اهـ.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية[١]: قد رأيت في بعض المسانيد أن الأشعث بن قيس قال: يارسول الله أتتكافأ دماؤنا؟ قال: نعم، ولوقتلت رجلا من باهلة لقتلتك.

ومنها بنو تميم ومما قالوا في احتقارهم:

إذا ما تميمي أتاك مفاخرا فقل عُد عن ذا كيف أكلك للضب

وقال آخر:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو دعيت سبل الهداية ضلت

---

[١] البداية والنهاية عند ترجمة قتيبة بن مسلم، جـ٩ص١٦٩ .

الخـلاصة

وفي ضمن الطعن في الأنساب خطيئة أخرى، وهي الترفع والتكبر، فإن الطاعن كلما يطعن أحدا ويزدريه فإنه يترفع عنه ويتكبر عليه، والتكبر على الناس حرام شرعا، بل هو كبيرة من الكبائر، قال الله تعالى: **{ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا** في **الأرض}** وقال تعالى: **{واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد}** وقال تعالى: **{كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}** وقال تعالى: **{سأصرف عن آيا**تي **الذين يتكبرون** في **الأرض بغير الحق}.** وقال صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر[١]. وقال صلى الله عليه وسلم: يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّرّ في صورة الرجال يغشاهم الذّل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُوْلَسْ تعلوه نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال"[٢] .

وفي رواية: يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذّرّ تطؤهم الناس لهوانـهم على الله". وقال صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"[٣]. والآيات والأحاديث الواردة في الكبر كثيرة مشهورة.

---

[١] رواه مسلم وغيره .

[٢] رواه النسائي والترمذي، واللفظ له، وقال: حديث حسن .

[٣] راه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

فليحرص المسلم أن يجتنب عن الطعن في الأنساب، وأن يتوقى عن إيذاء المسلم بثلب عِرضه وانتهاك حرمته، فإن كل المسلم على المسلم حرام: دمُه وماله وعِرضه، كما قال المعصوم صلى الله عليه وسلم[1].

وليعلم أنه كما يؤذي أخاه بالطعن في نسبه كذلك يؤذي نفسه بعرضها لعقاب ربـها في الآخرة، وأما في الدنيا فتبيح الشريعة للمظلوم أن يجزي السيئة بسّيئة مثلها، فله أن يكافئ طاعَنه ويسّبه ويؤذِيَه بمثل أذّيته، فيكون عِرضه مُهدّرا يجوز ثَلْبُهُ يمثل ما ثَلَبَ به عِرضَ أخيه لكن لا يطعن آباءه وأمهاته أصلا، فإنـهم لم يؤذوه فلا يباح له إيذاؤهم، كما ذكرناه آنفا نقلا عن الإمام النووي رحمه الله تعالى، والله الموفق .

---

١ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .

المبحث السادس: في **أن العصبية غريزة من غرائز الناس وطبيعتهم**

اعلم أن التعصب داء دفين في الإنسان كامن فيه كمون النار في الزند والدهن في اللبن فقلّما يسلم منه أحد عند وجود دواعيه وحصول أسبابه المقتضية له إلا من لطف الله به وعصمته العناية الإلهية منه، فإنه يُحَرِكُ الأعصاب لأتفَهِ الأسباب[1] ويثير الفتنة بين الأصدقاء والأحباب.

قال ابن خلدون في مقدمته: إن لقريب يجد في نفسه غضاضة(٢) من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب

---

[1] وكثيرا ما تبتدأ فتن القبائل من أقل شيء مثل إتلاف شاة أو بعير ثم تفشو وتزيد فتستمر سنين كثيرة، وتهلك فيها خلائق كما وقع في حرب البسوس، وحاصل قصتها كما في "الإرشاد الشافي على متن الكافي في علمى العروض والقوافي" أن البسوس -بفتح الموحدة- ذهبت لزيارة أختها هيلة أم جساس وكانت إذ ذاك راكبة على ناقة جارٍ لها من قبيلة جرم بن ريان، وكان كليب قد حمى قطعة أرضٍ فلم يكن يرعاها إلا إبل جساس لمصاهرة بينهما خرجت الناقة في إبل جساس ترعى حمى كليب فاستغربها كليب فرماها بحربة فأتلف ضرعها فولت الناقة حتى بركت عند صاحبها الجرمي وضرعها يشخب لبنا ودما، فصاحت بسوس قائلة واذُلّاه واغربتاه، فقال جساس لها: أيتها الحرة أهدئي، فو الله لأعقِرنّ فحلا هو أعز على أهله منها، فبلغ ذلك كليبا فظن أنه أراد بالفحل فحلا عنده أعز إبله فقال: دون عقره خرط قتاد مع أن جساس لم يَعْنِ بالفحل إلا نفس كليب، فلم يزل جساس يتوقع غرة كليب أي غفلته حتى خرج وتباعد عن الحمى فخرج جساس في أثره وتبعه عمرو فرماه جساس بحربة في صلبه فقال كليب لعمرو: أغثني بشربة ماء، فأجهز عمرو عليه أي تَمّم قتله ولذلك قيل:

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

فاستمر الشرّ والقتال بين تغلب وبين آل بكر قبيلة جساس أربعين سنة، والغالب فيها كلها هو تغلب، وفي المثل: أشأم من البسوس اهـ وفي القاموس وشرحه: أن البسوس اسم الناقة أو اسم امرة أو غير ذلك .

[2] القضاضة الذّلة والمنقصة .

والمهالك، وهذا طبيعة في البشر مذ كانوا وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنَعَرَة(١) على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، وبـها يكون التعاضد والتناصر، وتعظم رهبة العدو لهم .

وقد بلغت خطورته أن وقع في شبكته بعض الأكابر من العقلاء والعلماء، فقد روى أن لبعض الصحابة رضي الله عنهم فلتات من العصبية وميول إليها وأنه أصاب بللها في بعض الحالات ثيابـهم النقية لكنها كانت لا تثبت في قلوبـهم الطاهرة النيرة إلا لحظة أو لحظات يسيرة فيتنبهون بأسرع وقت ويتذكرون أن ذلك خطفة شيطانية أو انفعال نفساني فيعودون مسرعين إلى هديهم ووقارهم ومعالي أخلاقهم. فهم ممّن قال الله تعالى فيهم: **{إن الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}.**

فمن ذلك ما رواه البخاري في باب حديث الإفك من كتاب المغازي عن عائشة رضي الله عنها قالت: استعذر[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني

---

[١] وفي معجم الوسيط: النَعَرَة الكبر والخيلاء والعصبية، يقال: رجل نَعار في الفتن خَراج فيها سعّاء، وفي القاموس: النعرة كهمزة الخيلاء والكبر، نعر القوم هاجوا واجتمعوا في الحرب، وفي مقاييس اللغة: نَعَر في الفتنة سعى وجاء وذهب، والنعار في الفتن يسعى فيها ويصوت بالناس .

[٢] قال في الفتح في شرحه لهذا الحديث في كتاب التفسير: أي طلب من يعذر منه أي ينصفه، وقيل: من ينصرني والعَذِرُ الناصر، وقيل: المراد من ينتقم لي منه وهو كالذي قبله، ويؤيده قول سعد: أنا أعذرك منه اهـ قال النووي في شرح مسلم: أي من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعله ولا يلومني .

من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي. قالت: فقام سعد بن معاذ أخو -بني عبد الأشهل- فقال: أنا يارسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام رجل من الخزرج -وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه[1] وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، قالت: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت. الحديث . ورواه مسلم في باب حديث الإفك من كتاب التوبة.

قال النووي في شرح مسلم: مما يؤخذ من حديث الإفك كراهية الإنسان صاحبه أو قريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح كما

---

[1] قال الحافظ في الفتح في شرحه لهذا الحديث: يعني أن أم حسان التي اشتركت في الإفك هي بنت عم سعد بن عبادة. وأم حسان اسمها الفريعة بنت خالد بن خنيس ين لوذان بن عبدودّ بن زيد بن ثعلبة، وقوله من فخده بعد قوله بنت عمه إشارة إلى أنـها ليست بنت عمه لحاّ لأن سعد بن عبادة يجتمع معها في ثعلبة اهـ وقوله: لحّا أي لاصق النسب، يقال: هو ابن عمي لحّا، وابن عم لحّ: لاصق النسب، فإن لم يكن لحّا كان رجلا من العشيرة، قلتَ ابن عمّ الكلالة، وابن عمّ كلالة اهـ قاموس .

فعلت أم مسطح في دعائها عليه اهـ يعني قولها: تعس مسطح وكان من الخائضين في الإفك. وقال أيضا في شرح مسلم: وفيه جواز سب المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق، فقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وأراد أنك تفعل فعل المنافقين ولم يرد النفاق الحقيقي اهـ.

وقال العسقلاني في الفتح: في هذا الحديث أن التعصب لأهل الباطل يخرج من الصلاح، واستدل أبو علي الكرابيسي صاحب الشافعي على منع الحكم حالة الغضب بما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون، قال: فإن الغضب يخرج الحليم المتقي إلى مالا يليق به، فقد أخرج الغضب قوما من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مالا يشك أحد من الصحابة أنـها منهم زلة اهـ.

وذكرنا في باب حمية الجاهلية أن الأوس والخزرج كادوا يقتتلون لما ذكّرهم اليهودي ما كان بينهم من الشر في الجاهلية، ثم عرفوا أنـها نزغة من الشيطان فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا باكين.

المبحث السابع: في اتـهام بعض الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم القبلّية وبراءته من ذلك كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب

روى الإمام البخاري ومسلم عن أنس بن مالك واللفظ للبخاري: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ما أفاء من أموال هوازن فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا المائة من الإبل فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !! قال أنس: فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما ناس منا حديثة أسنانـهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض [1] .

وفي رواية أخرى لمسلم والبخاري واللفظ له عن أنس أيضا قال: لماكان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع النبي

---

[1] رواه البخاري في باب غزوة الطائف من كتاب المغازي، ومسلم في باب إعطاء المؤلفة قلوبـهم على الإسلام من كتاب الزكاة .

صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف ومن الطلقاء[1] فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادي يومئذ ندائين لم يخلط بينهما، إلتفت عن يمينه فقال: يامعشر الأنصار، قالوا: لبيك يارسول الله أبشر نحن معك، ثم التفت عن يساره فقال: يامعشر الأنصار قالوا: لبيك يارسول الله أبشر نحن معك وهو على بغلة بيضاء، فنـزل فقال: أنا عبد الله ورسوله فانـهزم المشركون فأصاب يومئذ غنائم كثيرة فقسم في المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئا، فقالت الأنصار: إذا كانت شديدة[2] فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا، فبلغه ذلك فجمعهم في قبة فقال: يامعشر الأنصار ما حديث بلغني عنكم فسكتوا، فقال: يامعشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار شعبا لأخذت شعب الأنصار.

وفي البداية والنهاية[3] روى محمد بن إسحاق عن أبي سعيد الخذري قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال

---

[1] كذا في رواية للبخاري، وفي أخرى له عشرة آلاف والطلقاء، وفي مسلم عشرة آلاف ومعه الطلقاء. وقال النووي في شرح هذا الحديث: الطلقاء بضم الطاء وفتح اللام وبالمد، وهم الذين أسلموا يوم فتح مكة. وكان المسلمون يومئذ اثنى عشر ألفا، عشرة آلاف شهدوا الفتح وألفان من أهل مكة ومن انضاف إليهم .

[2] كذا في البخاري وفي مسلم : الشدة .

[3] البداية والنهاية، طبعة بيروت، جـ ٤ص٣٥٨ .

قائلهم: لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، فقال: فيم؟ قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فإذا اجتمعوا فأعلمني، فخرج سعد فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا وجاء آخرون فردهم حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال: يارسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يامعشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تجيبون يامعشر الأنصار؟ قالوا: وما نقول يارسول الله وبماذا نجيبك؟ المن لله ولرسوله، قال: والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم جئتنا طريدا فأويناك وعائلا فآسيناك[1] وخائفا فأمناك ومخذولا فنصرناك، قالوا: المنّ لله ولرسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوجدتم في نفوسكم يامعشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بـها قوما أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر

[1] كذا في البداية والنهاية- فآسيناك وفي مجمع الزوائد – فواسيناك .

الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله ربا ورسوله قسما ثم انصرف وتفرقوا وهكذا رواه الإمام أحمد وهو حديث صحيح .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال رجل من الأنصار لأصحابه: أما والله لقد كنت أحدثكم أنه لو استقامت الأمور قد آثر عليكم، قال: فردوا عليه ردا عنيفا الحديث اهـ .

وروى البخاري عن عبد الله قال: لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حنين قال رجل من الأنصار: ما أراد بـها وجه الله، قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فتغير وجهه ثم قال: رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر .

وروى البخاري في باب علامات النبوة من كتاب المناقب واللفظ له ومسلم في باب ذكر الخوارج من كتاب الزكاة عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يارسول الله اعدل، فقال: ويلك ومن يعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل؟ فقال عمر بن الخطاب: يارسول الله إئذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتـهم وصيامه مع

صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية [١] الحديث .

وروى البخاري في كتاب مناقب الأنصار ومسلم في باب إعطاء المؤلفة قلوبـهم من كتاب الزكاة واللفظ له عن أبي التياح قال: سمعت أنس بن مالك قال: لما فتحت مكة [٢] قسم الغنائم في قريش فقالت الأنصار: إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم فقال: ما الذي بلغني عنكم؟ قالوا: هو الذي بلغك، وكانوا لا يكذبون، قال: أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا إلى بيوتـهم وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم الحديث .

وفي تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{ياءيها النبي قل لمن في أيديكم من الأساري إن يعلم الله في قلوبكم خيرا}** . الآية . قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مغفل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: إني قد عرفت أن أناسا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا منهم أي من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها، فقال أبو حذيفة بن عتبة:

---

[١] قال الحافظ في فتح الباري: الرمية بوزن فعيلة بمعنى مفعولة وهو الصيد المرمي .

[٢] قوله لما فتحت مكة المراد منه عامه فتحها، لأن الغنائم المشار إليها كانت غنائم حنين وكان ذلك بعد الفتح بشهرين .

أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب: يا أباحفص- قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حفص-: أيضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف؟ فقال عمر: يارسول الله إئذن لي فأضرب عنقه فو الله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدا رضي الله عنه اهـ .

واتـهم رجل من الأنصار برسول الله صلى الله عليه وسلم العصبية حين اختصم هو والزبير في سقي النخل، روى البخاري في باب شرب الأعلى قبل الأسفل من كتاب المساقاة عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا زبير اسق ثم أرسل فقال الأنصاري: إنه ابن عمتك، فقال عليه الصلاة والسلام: اسق يازبير حتى يبلغ الماء الجدر[1] ثم أمسك، فقال الزبير: فأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . رواه البخاري بطرق، وفي بعضها فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك فَتَلَونَ وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

[1] الـجَدر- الحائط كالجدار .

المبحث الثامن: في التحذير عن إساءة الظن إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم

لقد ذكرنا ما وقع من بعض الصحابة رضي الله عنهم من العصبية وقد يكون ذلك سببا إلى إساءة الظن فيهم وانتقاص مراتبهم العالية، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوع فيهم ونـهانا عن إيذائهم وسوء الاعتقاد فيهم وشدد في ذلك، وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: الله الله في أصحابي لاتتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم[1] ومن أذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه. رواه الترمذي عن عبد الله بن مغفل.

وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا أصحابي فو

---

[1] قال العزيزي في "السراج المنير شرح الجامع الصغير": أي اتقوا في حق أصحابي ولا تلزموهم بسوء ولا تنقصوهم من حقهم ولا تسبوهم ولا تتخذوهم غرضا أي هدفا ترمونـهم كما يرمى الهدف بالسهام. وقوله فبحبي فالمصدر مضاف لمفعوله أو لفاعله أي إنما أحبهم بسبب حبه إياي أو حبي إياهم، وقوله فببغضي المصدر مضاف لمفعوله أي إنما أبغضهم بسبب بغضه إياي اهـ. وقال الحفني في حاشيته على "السراج المنير": قوله: لاتتخذوهم غرضا بعدي أي بعد موتي أشار بذكر بعدي إلى أنه صلى الله عليه وسلم علم بنور النبوة أنه سيقع بينهم محاربة فنهانا عن الخوض فيهم فيجب إعتقاد عدالتهم إذ الطعن فيهم يؤدي إلى هدم الإسلام لأن الوحي انقطع والقرآن والسنة إنما أوصلهما لنا الصحابة رضي الله عنهم والطعن فيهم يؤدي إلى رد ما نقلوه اهـ

الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه- والنصيف النصف .

وقد بين الله تعالى شرفهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ووردت في مناقبهم الأحاديث الكثيرة، وصرح الأئمة حملة الشريعة المطهرة على أنـهم أفضل هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، فهم أولياء الله وأصفياؤه، فمن طعن فيهم فقد عاداهم ومن عاداهم فكأنما بارز الله بالمحاربة، قال الله تعالى في الحديث القدسي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وهم أفضل من الحواريين أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره، ومؤمن آل فرعون، وآصف ين برخياء الذي علمه الله الاسم الأعظم، ومن أويس بن عامر القرني خير التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وسئل الإمام عبد الله بن المبارك أيما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله للغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من مائة مثل ابن عبد العزيز .

فيجب على المسلمين حسن الاعتقاد فيهم وترك الانتقاد والطعن فيهم، وحبهم من الإيمان وبغضهم نفاق وزندقة .

قال الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي في الكفاية: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتـهم واختياره لهم في نص القرآن.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله اختارني واختار أصحابي فجعلهم أصهاري وجعلهم أنصاري، وإنه سيجيء في آخر الزمان قوم ينتقصونـهم ألا فلا

تناكحوهم ألا فلا تنكحوا إليهم ألا فلا تصلوا معهم ألا فلا تصلوا عليهم، عليهم حلت اللعنة، وقال الإمام أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بـهم أولى وهم زنادقة. انتهى ما نقلته من الكفاية .

فالصحابة رضي الله عنهم ليسوا كمثلنا ولا يقاس بـهم غيرهم فقد كان منهم الخلفاء الراشدون ومنهم البدريون الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبا لعمر: وما يدريك لعل الله عز وجلّ قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم [1]

ومنهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ومنهم العشرة المشهود لهم بالجنة. ومنهم أصحاب الشجرة الذين قال الله فيهم:**{ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك** تحت **الشجرة}** .

فلا يعار عليهم بفلتة من العصبية أو ذرة من القبلية فهم رضي الله عنهم إما معفو عنهم بمحض فضله تعالى وإحسانه، وإما أن تذهب حسناتـهم بسيآتـهم وتمحو أثرها فإن الحسنات يذهبن السيآت. وقد ذكرنا أن حسنات إنفاقهم مضاعفة أضعافا كثيرة لا يحصيها إلا الله، حتى إن مدّ أحدهم أفضل من جبل أُحُدٍ تَصَدقَ به مَنْ بَعْدَهم من التابعين وغيرهم،

---

[1]- رواه البخاري في كتاب التفسير في تفسير سورة الممتحنة .

وإما أن يتوبوا إلى الله توبة نصوحا فيتوب الله عليهم ويغفر لهم، وإما أن يستغفر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فوجدوا الله توابا رحيما.

فمن العجب من يعدّ خطيآتـهم ويتتّبع زلاتـهم ويجمعها ثم يعيبهم عليها وهي لا تساوي كلها ذرة من كبائر ذنوبه وعظائم سيئاته، فهو كالذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه [1]. وكمن يحمل رواسي الجبال من الآثام على ظهره ولا يراها ويرى ذرة وقعت لحظة من صحابي لا شك أنه من أهل الجنة .

فقد روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: لا تمس النار مسلما رآني أو رآى من رآني[2].

وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة قال أبو محمد بن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعا، قال الله تعالى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير . فثبت أن الجميع من أهل الجنة وأنه لا يدخل أحد منهم النار لأنـهم مخاطبون بالآية السابقة، والجواب عما قد يتوهم من التقييد بالإنفاق والقتال في هذه الآية، وكذلك التقييد بالإحسان في قوله تعالى: {**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان**} يخرج من لم

---

[1] - حديث يبصر أحدكم رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في الجامع الصغير .

[2] - قال الشيخ منصور علي ناصف في شرح التاج: إن سند هذا الحديث حسن .

يتصف بذلك، هو أن التقييدات المذكورة خرجت مخرج الغالب، وإلا فالمراد من اتصف بالإنفاق والقتال بالفعل أو القوة اهـ من الإصابة بتصرف واختصار .

واعلم أن للصحابة رضي الله عنهم أيضا أعذارا ظاهرة مقبولة عند من أنصف ولم يتعسف، منها أنهم عاشوا زمنا في جاهلية تدين العصبية التي ورثتها عن الآباء والأجداد وكانت لهم طبيعةً مستمرة في أحقاب من السنين، ولا يخفى أن في إزالة الأخلاق المتمكنة في النفوس صعوبةً وفي محوها من القلب دفعة حرجا كبيرا، بل لابد من التدريج شيئا فشيئا حتى يذهب بالكلية أثرها بعد رسوخ نور الإيمان في أعماق قلوبهم وبعد انطباع النفس بطبيعة التمع المستمَدة من الهدي النبوي، فما ظهر منهم من العصبية ببعض الأوقات فمن بقايا تلك الطبيعة القديمة ومن آثار الأخلاق الموروثة من الآباء ومن التمع الجاهلي، وقال صلى الله عليه وسلم: إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوا به، فإنه يصير إلى ما جبل عليه [1]

---

[1] قال العزيزي في "السراج المنير شرح الجامع الصغير": قال الشيخ يعني السيوطي: حديث صحيح. وقال الهيثمي: روى حديث إذا سمعتم بجبل- الإمام أحمد عن أبي ا"درساء ورجاله رجال الصحيح إلا أن الزهري لم يدرك أبا الدرداء، وقال علي بن سلطان القاري في "مرقاة المفاتيح" جـ١ص١٩٦ رواه أيضا ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه في تفاسيرهم وقال القاري نقلا عن ابن حجر الهيتمي: هذا مثال تقريبي باعتبار استبعاد العادة لزوال الجبل عن مكانه استبعادا يلحقه بالمحال العقلي اهـ والحقيقة أن تبديل الخلق ممكن، لكنه يحتاج إلى بذل جهد كبير في ذلك، فقد قال تعالى: قد أفلح من زكاها. وفي الحديث: حسّنوا أخلاقكم. وحديث اللهم كما حسّنت خلقي فحسّن خلقي. وحديث اللهم اهدني لصالح الأعمال والأخلاق لا يهدي لصالحها إلا أنت. ومن أراد الاستصقاء فعليه بالإحياء .

وعن عبد الله بن ربيعة قال: كنا عند عبد الله يعني ابن مسعود فذكر القومُ رجلاً فذكروا من خلقه فقال عبد الله: أرأيتم لو قطعتم رأسه أكنتم تستطيعون أن تعيدوه ؟ قالوا: لا، قال: فيده، قالوا: لا، قال: فرجله، قالوا: لا، قال: فإنكم لن تستطيعوا أن تغيروا خُلقَه حتى تغيروا خَلْقَهُ فذكر الحديث [١]

فلا استغراب إذن إن بقيت في نفر قليل من الصحابة عقب إسلامهم مثقال ذرة من العصبية تبدو مرة وتزول لحظة ثم تتبعها ندامة وتوبة نصوحة تمحو أثرها فيكونون في الحال يتعانقون ويبكون تأسفا على ما صدر منهم في تلك اللحظة اليسيرة .

ومنها أن ما نقل منهم من العصبية كان في حال الخصومة وثوران الغضب، وقد صرح العلماء بأنه يتحمّل في الحدة وبوادر الغضب مالا يحتمل في حال هدوء النفس وسكونـها، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه في باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة من كتاب الإيمان عن علقمة بن وائل عن أبيه قال: جاء رجل من حَضْرَمُوْت ورجل من كندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الحضرمي: يارسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمي: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه، قال: يارسول الله

---

[١] قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" في باب فرغ إلى كل عبد من خلقه من كتاب القدر: روى حديث ابن مسعود الطبراني ورجاله ثقات .

إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف وليس يتورع من شيء، فقال: ليس لك إلا ذاك .

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث[1]: في هذا الحديث أن أحد الخصمين إذا قال لصاحبه: إنه ظالم أو فاجر أو نحوه في حال الخصومة يحتمل ذلك منه .

وروى البخاري في تفسير سورة الكهف من كتاب التفسير ومسلم في باب فضائل الخضر من كتاب الفضائل عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام فقال: كذب عدو الله سمعت أبي بن كعب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يرد العلمَ إليه. الحديث.

قال النووي في شرح هذا الحديث: قوله: كذب عدو الله قال العلماء: هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله، لا أنه يعتقد أنه عدو الله حقيقة وإنما قاله مبالغة في إنكاره قولَه لمخالفته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس لشدة إنكاره، وحالُ الغضب تطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها والله أعلم اهـ .

وقال الحافظ العسقلاني في الفتح : وقول ابن عباس كذب، وقوله: عدو الله محمولان على إرادة المبالغة في الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة اهـ .

---

[1] شرح مسلم جـ ١ص٤٤٠ .

وقال العيني في عمدة القاري شرح صحيح البخاري في شرح هذ الحديث: هذا تغليظ من ابن عباس ولا سيما كان في حالة الغضب اهـ .

فانظر رحمك الله إلى قول الحَضْرَمي أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرجل فاجر وليس يتورع من شيء، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقر على ذنب ولم يعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم فثبت أنه يُغْتَفَرُ في الغضب مالا يُغْتَفَرُ في غيره .

ومثله قول حبر الأمة: كذب عدو الله مع أن نوفا لم يكن عدو الله، ولم يكن ابن عباس يقصد أنه عدو الله حقيقة .

ومنها أن ما نسب إلى بعض الصحابة من العصبية لم يكن عنده عصبيةً بل كان قصده من ذلك صلة وبرا لأقاربه، فبدل بعض الحساد ذلك بغضا لهم رضي الله عنهم وعدوانا، وأشاعوه لإثارة الفتن .

وقد كثرت الأقاويل وأطلقت الألسن في الإفتراء والتزوير والطعن في نفر من الصحابة حتى كشف بعض المبتدعة برقع الحياء عن وجهه ونسب إليهم ما نَسَبَ من البهتان، وقد زلت ههنا أقدام كثير ممن ينسب إليه العلم من الشيعة وغيرهم حتى اجترأ بعضهم على الشيخين وباقي الخلفاء الراشدين(١). ولا تغتر بما كتبته أيدي الملحدين وأعداء الإسلام وبعض جهلة المسلمين في مؤلفاتـهم ومدارسهم وجامعاتـهم، واحذر أن

---

(١) منهم ابن تيمية فقد قال في حقهم ما تنفر منه الأسماع حتى قال في حق أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب: أخطأ في أكثر من ثلاثمائة مكان، وقال: إن عمر بن الخطاب له غلطات وبليات وأي بليات كما في فتاوي الحديثية ص١١٦اهـ وانظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ العسقلاني ففيه كثير من تـهورات ابن تيمية وحطه لمراتب بعض الصحابة رضي الله عنهم .

تسيئ الظن إلى أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تكون من المتهاونين في حقهم وأن تعتقد فيهم ما لايليق بمنصبهم الرفيع ومجدهم الأصيل رضوان الله عليهم أجمعين .

الفصل الثاني: في ذكر بعض طبائع القبائل وعاداتـهم

وفيه مباحث ثلاثة ومهمة وخاتمة

المبحث الأول: في **تنافسهم** في **تولية المناصب**

المبحث الثاني: في **العدالة** في **موالاة القريب والبعيد من المسلمين**

المبحث الثالث: في **الثأر** بين **القبائل**

المبحث الأول: في تنافسهم في تولية المناصب

من عادات القبائل المنافسة والمسابقة على تولية أبنائهم المناصب، فيبذلون الْمُهَجَ والأموال الكثيرة في ذلك، بل يقتل بعضهم بعضا في بعض الأحيان لتولي منصب واحد، وقد يهلك على ذلك كثير من الناس، وهذا يقع كثيرا، وهو من عادات القبائل السيئة المستغرَبَةِ عقلا، الممنوعة شرعا، وليس لهم أيّ مسوغ ومَبرر سوى زعمهم إن غَلَبَنا بنو فلان على هذا المنصب نكون أذلاء يزدريهم الناس ويسّبونـهم في المجامع والمحافل، فيحرّكون بنحو هذا أعصاب الشبان الحديثي الأسنان ويحرّضونـهم على القتال وبذل المهج في حماية شرف القبيلة وحراسة مجدها الأصيل، فتتأثر بذلك نفوسهم ويخوضون المعارك الهمجية .

ومن العجيب أن يرضى المسلم المكلف بـهلاك نفسه في الدنيا وبعقابـها في الآخرة لأجل أن ينال أحد من أقربائه منصبا يتمتع به أياما قلائل ثم يزول، وقد لا يُنَالُ ما قاتل لأجله، فيتضاعف عليه الخسران والندامة .

ولا يخفى على أحد أنه لا ينبغي لعاقل فَطِنٍ أن يبيع دينه ودنياه بِمَنصب غيره وسلطنته .

وفي "الزواجر عن اقتراف الكبائر" لابن حجر الهيتمي روى البيهقي: مِن أسوء الناس منـزلة مَن أذهب آخرته بدنيا غيره، وفي رواية: أنه أشر الناس ندامة، وفي رواية أخرى: أنه أشر الناس منـزلة يوم القيامة .

وروى الترمذي حديث من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس [1] .

وفي كنـز العمال أنه صلى الله عليه وسلم قال: يجيء المقتول يوم القيامة متعلقا بقاتله فيقول: يارب سل هذا فيم قتلني، فيقول الله: فيم قتلت هذا؟ فيقول: في مُلك فلان، رواه النسائي عن جندب.

وفي الكنـز أيضا: أنه صلى الله عليه وسلم قال: يجيء الرجل آخذا بيد الرجل فيقول: يارب هذا قتلني، فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنـها لي، ويجيء الرجل آخذا بيد الرجل فيقول: أي رب إن هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: فإنـها ليست لفلان فيبوء بإثمه، رواه النسائي عن ابن مسعود.

وروى الطبراني من حديث ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يجيء المقتول آخذا قاتله وأوداجه تشخب دما عند ذي العزة فيقول: يارب سل هذا فيم قتلني، فيقول: فيم قتلته؟ قال: قتلته لتكون العزة لفلان، قيل:هي لله [2].

وروي عن عامر الشعبي قال: لما قاتل مروان بن الحكم الضحاكَ بن قيس أرسل إلى أيمن بن خُرْيم الأسدي، الصحابي رضي الله عنه، فقال: إنا

---

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ ١ص٧٧ .

[2] الحديثان في كنـز العمال، في الفصل الرابع في وعيد قاتل النفس والحيوانات من كتاب القصاص والقتل والديات والقسامة/ قسم الأقوال .

نحب أن تقاتل معنا، فقال: إن أبي وعمي شهدا بدرا[١] وعهدا إليّ أن لا أقاتل أحدا يشهد أن لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءة من النار قاتلت معك، فقال: اذهب ووقع فيه وسّبه، فأنشأ أيمن يقول:

ولست مقاتلا رجلا يصلى على سلطان آخر من قـريش
أقاتل مسلما فـي غير شـيء فليس بنافعي ما عشت عيشي
لـه سلطانـه وعليّ إثمـي معاذ الله من جهـل وطيش [٢]

وفي مجمع الزوائد في باب "فيمن استعمل على المسلمين أحدا محاباة من كتاب الخلافة" عن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبوبكر رحمه الله حين بعثني إلى الشام: يا يزيد إن لك قرابة عَسيتَ أن تؤثرهم بالولاية، وذلك أكثر ما أخاف عليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم، رواه أحمد وفيه رجل لم يسمّ اهـ [٣]

---

[١] في تـهذيب تاريخ دمشق: وفي رواية: أن الذي طلب منه القتال عبد الملك بن مروان، وأنه قال له: إن أبي وعمي شهدا الحديبية، وقوله شهدا الحديبية أقوى من قول مَن قال: شهدا بدرا، والرواية التي تقول: إن طالب القتال منه عبد الملك بن مروان وَهَمٌ .

[٢] روى قصة أيمن بن خريم ابن الأثير بسنده في "أسد الغابة" جـ١ص١٦٠، وهي أيضا في تـهذيب تاريخ دمشق، جـ٣ص١٩٠ وفي حياة الصحابة جـ٢ص٤٠٣، وفي مجمع الزوائد للهيثمي في باب حرمة دماء المسلمين من كتاب الفتن، فقال فيه رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه إلا أنه قال: معاذ الله من فشل وطيش، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير زكريا بن يحيى رحمويه وهو ثقة .

[٣] وقد ذكرنا هذا الحديث في مبحث ذم العصبية .

المبحث الثاني: في **العدالة** في **موالاة القريب والبعيد من المسلمين**

ومن عادات القبائل وطبائعهم الميول والعاطفة لقرابتهم عند الدعاوى والشهادات ونحوها، وَيَعُدّون ذلك فيما بينهم مدحا وشرفا، ويفتخرون به، فترى أحدهم يتبجّح بأنه شهد لقريبه الظالم تعصبا له أوقضى له غير حقه، أو عّينه رئيسا لبلدة كذا، أو أعطاه رتبة عسكرية، أو نحو ذلك، فيقول: أنا رجل قَبَلِيّ قائم لمصالح قبيلتي، ولا يدري أنه باعَ آخرته بدنيا غيره، وقد قال صلى الله عليه وسلم: من أَسْوَإِ الناس منـزلة من أذهب آخرته بدنيا غيره [1] .

والواجب على كل مسلم حتماً أن يعدل بين قرابته وغيرهم في فصل النـزاع والإصلاح بين المتخاصمين، والشهادة والقضاء، وتولية المناصب ونحوها، قال الله تعالى: **{وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى}** وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: بّين سبحانه وتعالى أنه يجب أن يسوّى فيه أي القول بين القريب والبعيد، لأنه لما كان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيرها: يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد .

وقال السيوطي في الدر المنثور عن سعيد بن جبير قال: يعني ولو كان قرابتك فقل فيه الحق.

وقال تعالى: **{ياءيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أوالوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى**

---

[1] رواه البيهقي كما في الزواجر جـ ١ص٧٧ .

بـهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا} وقال ابن كثير في تفسيرها: أي فلا يحملّنكم الهوى والعصبية على ترك العدل . وفي الدر المنثور: كان الرجل يكون عنده شهادة قِبَلَ ابنه أو عمه أو ذوي رحمه فيلوي بـها لسانه أو يكتمها فنـزلت: **{كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله}** .

وكان صلى الله عليه وسلم يستوى عنده المؤمنون أحرارا كانوا أو عبيدا، أغنياء كانوا أو فقراء، أعزاء كانوا أو أذلاّء، ولا يُفَضل بعضَهُمْ على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح، فيواليهم ويقربـهم بقدر صلاحهم، لابقربـهم إليه في النسب، فكان يقدم الأفضل فالأفضل وإن كان بعيدا عنه في النسب، وكان أقرب الصحابة إليه أبوبكر رضي الله عنه، ولم يكن أقربـهم إليه نسبا، وكان ممن يُقَرِبُـهُمْ إليه بلال بن رباح الحبشي وسلمان الفارسي الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: سلمان مِنّا أهل البيت، وصهيب بن سنان الرومي،[1] وغيرهم رضي الله عنهم.

وروى مسلم في باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم من كتاب الإيمان عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول: ألا إن آل أبي يعني فلانا ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين .

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: معناه إنما وليي مَن كان صالحا وإن بَعُد نسبه مني، وليس وليي مَن كان غير صالح وإن كان نسبه قريبا. وأما قوله: جهارا فمعناه علانية لم يُخْفِهِ بل بَاْحَ به وأظهره وأشاعه، ففيه

---

[1] قيل: كان صهيب عربيا أسرته الروم فنسب إليهم

التبرؤ من المخالفين وموالاةُ الصالحين والإعلان بذلك ما لم يخف تربت فتنة عليه اهـ.

وقال تعالى: **{وإن تظّاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير}**

ولما **{نادى نوح رّبه فقال رب إن ابني من أهلي}** قال الله تعالى له: **{يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}** نفى الله تعالى عن ابن نوح أنه من أهله لعصيانه ولعقوقه، فإنه أبى الإنقياد إلى أمر والده رسول الله صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم لّمّا قال له: **{يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين}.**

فمن عمل عملا غير صالح وَتمرّد وكان مثل ابن نوح لا يكون أهلا لأبيه وأمه، ولا لقرابته وقبيلته، فهو مَّنْفِي عن الأهلّية منفصل عنهم، كما ُنِفي ابن نوح عن أبيه.

ومن كان على ضِدِ وَصفه وآمن بالله ورسوله وعَمِل الأعمال الصالحة فهو من أهلك، وإن كان من أبعد الناس عنك في النسب، ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سلمان منا أهل البيت، فصار من أهل بيت النبوة لمحاسنه المتنّوعة وأوصافه الجميلة من كثرة عبادته وصبره على غربته، وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وللإسلام أيضا حبا شديدا، فقد سئل رضي الله عنه عن أبيه: فانتسب إلى الإسلام وقال: أنا سلمان بن الاسلام ، وقد أجاد القائل:

كانت مّودة سلمان له نسبا ولم يكن بين نوح وابنه رَحِمٌ

فثبت أن الموالاة والمقاطعة والاتصال والانفصال عند الشريعة منوطة بالمحاسن والمساوي، وبالتقوى والعصيان، لا بقرب النسب وبُعْدِه. وقد أحسن البوصيري حيث قال في همزيته:

وَإِذَا كَانَ الْقَطْعُ وَالْوَصْلُ لِلّٰـ   ـهِ تَسَاوَى التقْرِيْبُ وَالإِقْصَاءُ

فالذي ينبغي للمسلم واللائق به أن ينقاد لأمر ربه جلّ جلاله ويهتدي بـهدي نبيه صلى الله عليه وسلم، ويستمسك بالعروة الوثقى، فيعدل بين إخوته المسلمين، ولا يفرق بين الأقارب وغيرهم، وتكون موالاته ومقاطعته لأجل الله تعالى، لالحظ نفسه ومتابعة هواه، وفقنا الله تعالى لما فيه رضاه وتُحْمَدُ عُقْبَاهُ .

المبحث الثالث: في **الثأر** بين **القبائل**

من عادات القبائل السيئة "الثأر" وهو أن تقتل القبيلة من القبيلة التي قتلت منها نفسا أو أنفسا مثل ما قتلت عنها، إنْ واحدا فواحد، وإن أكثر فأكثر، ويقتلون من يجدونه ممن ينتمي إلى قبيلة القاتل، سواء كان القاتلَ أو غيرَه. بل الواقع كثيرا أن يقوم أهل القتيل بالانتقام من غير القاتل بل يحتاطون على قتل الأفضل من العلماء أو الرؤساء أو الشجعان أو نحو ذلك .

والثأر ذنب عظيم من الكبائر الموبقات سواء كان المقتول للثأر القاتلَ أو غيره، فإنه إذا كان غيره فظاهر، وإن كان القاتلَ فحرام أيضا، لأن القصاص قد لا يجب عليه لعدم استيفاء شروط القصاص المعروفة، وإن وجب عليه القصاص فتستحقّه الورثة ويستوفيه الإمام ولا شيء للقبيلة منه .

وهذه العادة قديمة فقد قال الحافظ العسقلاني في "فتح الباري" [1] في شرح قوله صلى الله عليه وسلم: لاهامة": ذكر الزبير بن بكار أن العرب كانت في الجاهلية تقول: إذا قتل القتيل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة- وهي دودة- [2] فتدور حول قبره فتقول: اسقوني اسقوني، فإن أدرك بثأره ذهبت، وإلا بقيت، وفي ذلك يقول شاعرهم:

يا عمرو إلا تَدَعْ شتمي ومنقصتي   أضرِبْك حتى تقول الهامةُ اسقونـي

قال: وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب اهـ .

---

[1] فتح الباري في باب لاهامة من كتاب الطب .

[2] قال القزاز: الهامة طائر من طير الليل كأنه يعني البومة . فتح الباري .

فثبت أن الثأر كان من أخلاق الجاهلية واليهود، فما أقبح اتباعهم والإقتداء بـهم .

ومن مساوي "الثأر" أن القبائل إذا أخذوا ثأرهم وقتلوا نفسا مؤمنة بغير حق فرحوا واستبشروا بارتكاب هذه الجريمة العظيمة، بل يفتخرون بذلك، وهذا ذنب آخر لأن الفرح والإفتخار بالمعاصي ذنب كما في الزواجر للهيتمي [١] .

والثأر يقع غالبا على غير القاتل لأنه يخاف على نفسه، فيختفي أو يهرب أو يدافع عنه أبناء عشيرته كما قال زهير بن أبي سلمى:

وقال سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوّيْ بألفٍ من ورائيَ مُلْجَمِ[٢]

فلا يُتَمَكنُ غالبا مِن قتْلِهِ فَيقتلون مَن يجدونه من قبيلة القاتل .

وفي كنـز العمال قال صلى الله عليه وسلم: إن أعدى الناس على الله من قَتلَ في الحرم، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذَحُوْلِ[٣] الجاهلية، رواه أحمد في مسنده عن ابن عمرو.

وقال صلى الله عليه وسلم: لعن الله من قتل بِذَحْلِ الجاهلية، رواه ابن جرير عن مجاهد مرسلا.

---

[١] قال في الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ١ص ٧٣: الكبيرة الثالثة والثلاثون فرح العبد بالمعصية اهـ .

[٢] أي سأقضي حاجتي من قتْل قَاتِل أخي أو قتْل كُفء له ثم أجعل بيني وبين عدوي ألف فارس ملجِم فرسه، أو ألفا من الخيل ملجَما .

[٣] وفي القاموس: الذحل: الثأر، أو طلب مكافئة بجناية جُنيت عليك، وجمعه أذحال وذحول، ومثله في مختار الصحاح .

وقال صلى الله عليه وسلم: إن أعتى الناس على الله ثلاثة، رجل قتل غير قاتله، أو قتل بذحل الجاهلية، أو قتل في حرم الله، رواه ابن جرير عن قتادة مرسلا.

وقال صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالقاتل والمقتول يوم القيامة فيقول: أي رب سل هذا فيم قتلني فيقول: أي رب أمرني هذا، فيأخذ بأيديهما جميعا فيقذفان في النار، رواه الطبراني عن أبي الدرداء.

وقال صلى الله عليه وسلم: يقعد المقتول بالجادة فإذا مرّ عليه القاتل أخذه فيقول: يارب هذا قطع عليّ صومي وصلاتي، فيعذب القاتل والآمر به، رواه الطبراني عن أبي الدرداء [1].

وفي الثأر أيضا خطر الاستحلال، فقد يظن بعض العوام الجهّال أن قتل كل فرد من قبيلة القاتل جائز كالقصاص فيستحلونه، وهذا فيه خطر عظيم لأن الاستحلال بالقتل المحرم بالإجماع إذا عُلِمَ مِن الدين بالضرورة يكون كفرا والعياذ بالله منه .

وفيه أيضا التعاون على الإثم والعدوان، فترى قبيلة القتيل يتعاونون ويستخدمون كل الوسائل لإدراك ثأرهم، وقد قال تعالى: **{ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}** .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، رواه ابن ماجه والأصبهاني، وزاد قال سفيان بن

---

[1] كنـز العمال في الفصل الرابع في وعيد قاتل النفس والحيوانات من كتاب القصاص والقتل والديات والقسامة/ قسم الأقوال .

عيينة: هو أن يقول: أُقْ" يعني لا َيِتم كلمة أُقْتلْ. ورواه البيهقي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله [1].

[1] الترغيب والترهيب في باب الترهيب مِنْ قَتْلِ النفس التي حرم الله إلا بالحق من كتاب الحدود .

مهمة في **الزجر عن قتل المسلم عمدا** بغير **حق**

قال الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ٢ص٨٨: اختلفوا في أكبر الكبائر بعد الشرك، والصحيح المنصوص أن أكبرها بعد الشرك القتل، وقيل: الزنا اهـ .

قال الله تعالى: **{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب** الله **عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما}** وقال تعالى: **{من أجل ذلك كتبنا على** بني **إسرائيل أنه من قتل نفسا** بغير **نفس أو فساد** في **الأرض فكأ**نما **قتل الناس** جميعا **ومن أحياها فكأ**نما **أحيا الناس** جميعا **ولقد جاءتـه رسلنا بالبينات ث إن كثيرا منهم بعد ذلك** في **الأرض** ل**مسرفون}** وقال تعالى: **{والذين لا يدعون مع** الله **إلها آخر ولا يقتلون النفس** التي **حرم** الله **إلا** بالحق **ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة و**يخلد **فيه مهانا}** وقال تعالى: **{ولا تقتلوا النفس** التي **حرم** الله **إلا** بالحق **ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون}**

١. وفي الترغيب والترهيب للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. "الموبقات" المهلكات .

٢. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما، وقال

ابن عمر: من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله، رواه البخاري والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. "الورطات" جمع وَرْطَةٍ بسكون الراء وهي الهلكة، وكل أمر تعسر النجاة منه .

٣. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق، رواه ابن ماجه بإسناد حسن، ورواه البيهقي والأصبهاني، وزاد فيه: ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار . وفي رواية للبيهقي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لزوال الدنيا جميعا أهون على الله من دمٍ سُفِكَ بغير حق .

٤. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم، رواه مسلم والنسائي والترمذي مرفوعا وموقوفا، ورجح الموقوف .

٥. وروى النسائي والبيهقي أيضا من حديث بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا .

٦. وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: ما أطيبك وما أطيب ريحك، ما أعظمك وما أعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك، ماله ودمه.

٧. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار، رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب .

٨. وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم من قتله، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فقال: يا أيها الناس يقتل قتيل وأنا فيكم ولا يعلم من قتله، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء، ورواه الطبراني في الصغير من حديث أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لكبهم الله جميعا على وجوههم في النار .

٩. وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا، رواه النسائي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

١٠. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت مشركا أو يقتل مؤمنا متعمدا، رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد .

١١. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله سائل فقال: يا ابن العباس هل للقاتل من توبة؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه: ما ذا تقول؟ فأعاد عليه مسألته فقال: ما ذا تقول مرتين أو ثلاثا، قال ابن عباس سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: يأتي المقتول متعلقا رأسه

بإحدى يديه متلببا[1] قاتله باليد الأخرى، تشخب أوداجه دما حتى يأتي به العرش فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار، رواه الترمذي وحسّنه والطبراني في الأوسط، ورواته رواة الصحيح، واللفظ له .

١٢. وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول: من أخذل اليوم مسلما أُلْبِسُهُ التاج، قال: فيجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقّ والديه، فيقول: يوشك أن يبر هما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت وَيُلْبِسُهُ التاج، وراه ابن حبان في صحيحه .

١٣. وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قتل مؤمنا فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، رواه أبو داود، ثم روى عن خالد بن دهقان سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله: فاغتبط بقتله، قال: الذين يقاتلون في الفتنة فيقتل أحدهم فيرى أحدهم أنه على هدى لا يستغفر الله، "الصرف" النافلة، "والعدل" الفريضة. وقيل: غير ذلك، انتهى ما نقلته من الترغيب والترهيب [2].

---

[1] في القاموس وشرحه: لّببه تلبيبا إذا جمع ثيابه التي عليه عند نحره وصدره في الخصومة، ثم جرّه وقبضه إليه، وكذلك إذا جعل في عنقه حبلا أو ثوبا وأمسكه به .

[2] الترغيب والترهيب في باب الترهيب من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق من كتاب الحدود .

١٤. روى البخاري عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قلت: يارسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه. قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر : هذا إذا تقاتلا بعدواة أو عصبية أو طلب دنيا، فأما من قاتل أهل البغي بالصفة التي يجب قتالهم عليها فقتل أو دفع عن نفسه وحريمه فإنه لا يدخل في هذا الوعيد.

١٥. وروى ابن ماجه[١] عن السمَيْطِ بن السمير عن عمران بن الحصين قال: أتى نافع بن الأزرق[٢] وأصحابه، فقالوا هلكتَ ياعمران، قال: ما هلكتُ، قالوا: بلى، قال: ما الذي أهلكني؟ قالوا: قال الله: **{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}** قال: قد قاتلناهم حتى نفيناهم، فكان الدين كله لله، إن شئتم حدثتكم حديثا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: وأنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث جيشا من المسلمين إلى المشركين، فلما لقوهم قاتلوهم قتالا شديدا، فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل من لُحْمَتِيْ[٣] رجلا من المشركين بالرمح، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إني مسلم، فطعنه فقتله،

---

١ ابن ماجه كتاب الفتن .

٢ هو نافع ين الأزرق بن قيس الحنفي البكري الحروريّ، رأس الأزارقة . اجتمع هو وأصحابه في حَرُوْرَاْءَ ونادوا بالخروج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعرفوهم ومن تبع رأيهم بالخوارج . الإعلام للزركلي .

٣ قوله لُحْمَتِيْ بالضّمّ أي قرابتي، يقال: بينهم لحمة نسب أي قرابة وهو مجاز، ومنه الحديث: الولاء لحمة كلحمة النسب . قاموس .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله هلكت، قال: وما الذي صنعت؟ مرة أو مرتين، فأخبره بالذي صنع، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه؟ قال: يارسول الله لو شققت بطنه لكنت أعلم ما في قلبه، قال: فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه، قال: فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات، فدفناه فأصبح على ظهر الأرض، فقالوا: لعل عدوّا نبشه، فدفناه، ثم أَمَرْنَا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض، فقلنا: لعل الغلمان نَعَسُوا، فدفناه، ثم حرسناه بأنفسنا، فأصبح على ظهر الأرض، فألقيناه في بعض تلك الشعاب .

وفي رواية له: قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية فحمل رجل من المسلمين على رجل من المشركين، فذكر الحديث، وزاد فيه: فنبذته الأرض، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة: لاإله إلا الله" .

١٦. وعن أبي سعيد: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا، إلا وإن أحرم الشهور شهركم هذا، ألا وإن أحرم البلد بلدكم هذا، ألا وإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد .

١٧. وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر .

١٨. وعن جرير بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع: استنصت الناس فقال: لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض" انتهى ما نقلته من سنن ابن ماجه .

١٩. وفي الزواجر: أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ذنب أعظم عند الله تعالى؟ قال: أن تجعل لله نِدًا وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أيّ، قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك .

٢٠. وروى أحمد والنسائي وغيرهما أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر، قال: الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، والفرار يوم الزحف .

٢١. وفي كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن: وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله وقتل النفس المؤمنة بغير الحق .

٢٢. وروى الشيخان: لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أول من سنّ القتل .

٢٣. وروى الشيخان وغيرهما: أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء .

٢٤. وروى أحمد: يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِلْتُ اليوم بثلاثة، بكل جبّار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير حق، فينطوي عليهم، فيقذفهم في جمر جهنم.

٢٥. وروى البزار والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح: يخرج عنق من النار يتكلم بلسان طلق ذلق له عينان يبصر بـهما، ولسان يتكلم به

فيقول: إني أمرت بمن جعل مع الله إلها آخر، وبكل جبّار عنيد، ومن قتل نفسا بغير حق، فينطلق بـهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام[١] اهـ .

٢٦. وروى البخاري في كتاب الفتن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لاتقوم الساعة حتى تقْتِتلَ فِئَتاْن عظيمتان تكون بينهما مَقْتَلة عظيمة دعوتـهما واحدة، وحتى يُبْعَثَ دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرْج وهو القتل – الحديث .

٢٧. وفي التاج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يَتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الْهَرْجُ، قالوا: يارسول الله أيمَ هو؟ قال: القتل القتل،لروخه الأربعة.

٢٨. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قَتلَ، ولا المقتول فيم قُتِلَ، فقيل: يارسول الله كيف يكون ذلك؟ قال: الْهَرْجُ، القاتل والمقتول في النار، رواه مسلم[٢]

٢٩. وفي الدر المنثور في التفسير بالمأثور للحافظ السيوطي أخرج الشافعي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن المقداد بن الأسود قال: قلت: يارسول الله

---

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر، في الكبيرة الثالثة عشر بعد الثلاثمائة .

[٢] التاج الجامع للأصول في كتاب الفتن .

أرأيت إن اختلفت أنا ورجل من المشركين بضربتين فقطع يدي فلما علوته بالسيف قال: لا إله إلا الله أضربه أم أدعه؟ قال: بل دعه، قلت: قطع يدي، قال: إن ضربته بعد أن قالها فهو مثلك قبل أن تقتله، وأنت مثله قبل أن يقولها .

٣٠. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله تعالى: **{يا أيها الذين أمنوا إذا ضربتم** في **سبيل الله}** الآية، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني ضمرة فلقوا رجلا منهم يدعى مرداس بن نـهيك معه غنم له وجمل أحمر، فلما رآهم آوى إلى كهف جبل واتبعه أسامة فلما بلغ مرداس الكهف وضع فيه غنمه ثم أقبل إليهم فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فشدّ عليه أسامة فقتله من أجل جمله وغنيمته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث أسامة أحب أن يثنى عليه خير ويسأل عنه أصحابه، فلما رجعوا لم يسأله عنه، فجعل القوم يحدثون النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون: يارسول الله لو رأيت أسامة ولقيه رجل فقال الرجل: لا إله إلا الله محمد رسول الله فشدّ عليه فقتله، وهو معرض عنهم، فلما أكثروا عليه رفع رأسه إلى أسامة فقال: كيف أنت ولا إله إلا الله، فقال: يارسول الله إنما قالها متعوذا تعوّذ بـها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلاّ شقّقت عن قلبه فنظرت إليه، فأنزل الله خبر هذا وأخبر إنما قتله من أجل جمله وغنمه، فذلك حين يقول: **{تبتغون عرض الحياة الدنيا}** فلما بلغ **{فمن الله عليكم}** يقول: فتاب الله عليكم، فحلف أسامة أن لا يقاتل رجلا يقول: لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل .

٣١. وأخرج الطبراني عن جندب البجلي قال: إني لعند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه بشير من سريته، فأخبره بالنصر الذي نصر الله سريته، وبفتح الله الذي فتح لهم، قال: يارسول الله بينا نحن نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى إذ لحقتُ رجلا بالسيف فلما خشي أن السيف واقعه وهو يسعى ويقول: إني مسلم، إني مسلم، قال: فقتلته؟ فقال: يارسول الله إنما تعوّذ، فقال: فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب؟! فقال: لو شققت عن قلبه ماكان علمي هل قلبه إلا مضغة من لحم! قال: لا ما في قلبه تعلم ولا لسانه صدقت قال: يارسول الله استغفرلي، قال: لا أستغفر لك، فمات ذلك الرجل، فدفنوه فأصبح على وجه الأرض، ثم دفنوه فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات، فلما رأوا ذلك استحيوا وخزوا مما لقى، فاحتملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب [1].

٣٢. وفي تفسير ابن كثير: روى ابن جرير عن ابن عمر قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محلم بن جثامة مبعثا فلقيهم عامر بن الأضبط فحياهم بتحية الاسلام، وكانت بينهم إحنة في الجاهلية فرماه محلم بسهم فقتله، ثم ساق الحديث، فقال فيه: فجاء محلم في بردين فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا غفر الله لك" فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات ودفنوه فلفظته الأرض، فجاءوا إلى

---

١ الدر المنثور في التفسير بالمأثور في تفسير قوله تعالى: **{ياءيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا}** الآية.

النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال: إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ثم طرحوه بين صُدْقَىْ جبل وألقوا عليه الحجارة فنـزلت: **{ياءيها الذين آمنوا إذا ضربتم** في **سبيل الله فتبينوا}** الآية .

٣٣. وروى أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأهوى عليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا إلله، والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يارسول الله إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال: أدعوا لي المقداد، يامقداد أقتلت رجلا يقول: لا إله إلا الله، فكيف لك بلا إله إلا الله غدا [(١)].

وقال العلامة المحدث الشيخ أحمد بن المبارك في الإبريز: سمعت الشيخ سيدي عبد العزيز بن مسعود الدباغ يقول في عذاب قاتل الأرواح: إنه ليس كعذاب أهل النار، فقلت له: بيّن لنا ذلك، فقال رضي الله عنه: إن في جهنم نارا حارّة وبـها يعذب بنو آدم، ونارا باردة يعذب بـها الشياطين، وقتلة الأرواح بـهذه النار يعذبون مع الشياطين [(٢)].

---

[١] في تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{ياءيها الذين آمنوا إذا ضربتم** في **سبيل الله فتبينوا}** الآية.

[٢] الإبريز لسيدي عبد العزيز بن مسعود الدباغ ص٥٦٧ .

الخاتـمة

اعلم أن لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد، وكلمة التقوى، ومفتاح الجنة وثمنها، وبـها السعادة السرمدية، وهي أثقل ميزانا من السموات والأرضين، وهي العروة الوثقى، والكلمة الطيبة، وهي أفضل ما نطق به اللسان، وأشرف ما تُكِنُّه الصدور، وتستنير به القلوب، فلهذا كان صاحبها أعظم حرمة من الكعبة المشرفة التي هي أول بيت وضع للناس، وقبلةُ أهل الإيمان في صلاتـهم، ومطاف المؤمنين بل والأنبياء والمرسلين، فكان انتهاك حرمة صاحب هذه الكلمة أعظم عند الله من زوال الدنيا كلها مشرقها ومغربـها، ولو اشترك أهل السموات والأرضين في قتل واحد ناطق بـهذه الكلمة لكان نصيب كل منهم من الإثم ما يَكُبُّهُ في النار.

وقد علمتَ أن عدوّ الله إبليس ألبس التاج للشيطان الذي أغواه وأضله وزينَ له قتْل أخيه المسلم، وأنه يُعذّب معه في الآخرة كما ذكرناه نقلا عن سيدي عبد العزيز الدباغ .

فَنِدَاءً لأهل لا إله إلا الله أن يكفوا أيديهم عن أهل لا إله إلا الله، ويحترموهم لأجلها، ولا يَنكُثُوا عهد الله وميثاقه .

وليحرص كل امرئ من أهل هذه الكلمة أن لا يسفك قطرة من دم أخيه وإن كان أبعد الناس منه نسبا، أو كانت بين قبيلَتيهما أشدّ عداوة، أو كانت بينهما مخالفة طائفيّة في الفروع أو في الأصول، ما دام يجمعهما ما هو أهَم وأعز من ذلك كلّه، ألا وهو هذه الكلمة المشرفة لا إله إلا الله .

وليعلم المتقاتلان المسلمان أنهما كَبُنيانٍ واحد يَشُدّ بعضه بعضا إذا سقط منه البعض ضعف الباقي أو يسقط بعده، وأن كلا منهما من جند لا إله إلا الله وهو يناضل عنها ويقاتل لأجلها ويدافع بكل ما استطاع أعداءها، فكيف يستحسن القعل السليم أن تقتل من يَشُدّ عضدك ويقتل معك عدوّك ويخوض المعارك للدفاع عنك وعن عقيدتك لا إله إلا الله .

وليس من شأن العقلاء معاداة عدوّ أعدائهم وإن لم يكونوا على دينهم، فقد قيل في المثل: عدو عدوك صديقك .

فقوموا يا أهل لا إله إلا الله مثنى وفرادى وفكروا في مصالحكم العاجلة والآجلة {**وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب** ثم **لا تنصرون}** وأحسنوا للمسلمين فإن الله يحب المحسنين، والله الموفق .

فائدة في **توبة قاتل المسلم ظلما**

روى عن بعض العلماء أن قاتل المؤمن ظلما لا توبة له، وذهب أهل السنة إلى قبول توبته، وقالوا: إن توبة الكافر تصحّ، والقاتل أولى، ولا يتحتم عذابه، بل هو في خطر المشيئة ولا يخلد عذابه إن عُذب، وإن أصرّ على ترك التوبة كسائر ذوي الكبائر غير الكفر.

قال بعض العلماء يتعلق على القاتل عمدا حقوق ثلاثة : حق الله تعالى ، وحق القتيل ، وحق أولياء القتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة الصحيحة ، وحق أولياء القتيل بالقود أو بالعفو بالدية أو مجانا ، وحق القتيل بالاستغفار والدعاء له ، لكن قال الهيتمي فى التحفة: توبة القاتل ظلما القود أو العفو عنه مجانا أو على مال، فيسقط حق القتيل بذلك، ولا تبقى له مطالبة أخرويّة، وأما حق الله تعالى فإنه لا يسقط إلا بتوبة

صحيحة، ومجرد التمكين من القود لا يسقط به حق الله تعالى إلا إن انضم إليه ندم من حيث المعصية، وعزم أن لا يعود إلى مثله[١].

وأما آية: **{ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما}** فقال بعضهم: هي فيمن قتل مستحلا للقتل المحرّم بالإجماع المعلوم من الدين بالضرورة، فإنه يكفر بالاستحلال ويخلد في النار. وقال بعضهم: المراد من الآية المبالغة والزجر والتنفير عن القتل، وقيل غير ذلك .

وقالوا: ليس في الآية دليل للمعتزلة[٢] القائلين: بتخليد مرتكب الكبيرة في النار، وردّهم أهل السنة، واستدلوا عليهم بما يطول ذكره هنا .

واعلم أنه[٣] يتعلق بالقتل الذي ليس هو مباحا سوى عذاب الآخرة مؤخذات في الدنيا القصاص والدية والكفارة، ولا يجتمع القصاص والدية، وأما الكفارة فهي أعم منهما، فتجب مع كل واحد منهما، وقد تنفرد عنهما.

---

١ هذا حاصل ما في تحفة المحتاج شرح المنهاج مع حاشيته للشيخ عبد الحميد الشرواني، بتصرف في بعض العبارات.

٢ ومثل المعتزلة في هذا : الخوارج فإنـهم قائلون بتخليد مرتكب الكبيرة في النار، كما قاله النووي في الروضة في أول كتاب الجنايات .

٣ هذه العبارة للإمام النووي رحمه الله في الروضة .

الفصل الثالث: في العرفاء وهم زعماء القبائل والفصائل وفي فضل العدالة وذم الجور

وفيه مباحث ثلاثة

المبحث الأول: في تعريف العريف

المبحث الثاني: في ذكر بعض ما ورد في العرفاء والأمراء ونحوهما

المبحث الثالث: في أهمية العدالة وفضلها وذم الجور

المبحث الأول: في **تعريف العريف**

قال ابن منظور في لسان العرب: عَرُف عليهم يعرُف عِرافة تقول منه: عَرُف فلان بالضم عرافة مثل خَطُبَ خَطابة أي صار عريفا، وإذا أردت أنه عمل ذلك قلتَ: عَرَف فلان علينا سنين يعرُف عرافة مثل كتب يكتب كتابة، وعريف القوم سيدهم، والعريف النقيب وهو دون الرئيس، وفي الحديث: العرافة حق والعرفاء في النار أي فيها مصلحة للناس ورفق في أمورهم وأحوالهم، وقوله: العرفاء في النار تحذير من التعرض للرياسة لما في ذلك من الفتنة، فإنه إذا لم يقم بحقها أثم واستحق العقوبة اهـ .

وقال ابن الأثير: العرفاء جمع عريف وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم، والعِرافة عمله.

المبحث الثاني: في **ذكر بعض ما ورد** في **العرفاء والأمراء ونحوهما**

روي عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب على منكبه ثم قال: أفلحت يا قديم [(١)] إن مت ولم تكن أميرا ولا كاتبا ولا عريفا. رواه أبو داود [(٢)]

وروى أبو داود في سننه عن غالب عن رجل عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن العرافة حق ولا بد للناس من العرفاء ولكن العرفاء في النار[(٣)]

وقوله صلى الله عليه وسلم لا بد للناس من عرافة أي لأن الإمام يستعين به ويرجع إليه في أحوال قبيلته، قال الخطيب الشربيني في شرح قول النووي في المنهاج: وينصب أي الإمام لكل قبيلة أو جماعة عريفا: أي ليجمعهم عند الحاجة إليهم ويسهل عليه ما يريده منهم ويعرفه بأحوالهم لأنه صلى الله عليه وسلم قال في غزوة هوازن: إرجعوا حتى أسأل عرفاؤكم وقد كان قد عرف على كل عشرة عريفا اهـ .

وفي الترغيب والترهيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ويل للأمراء ويل للعرفاء، ويل للأمناء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يدلون بين السماء والأرض وأنهم

---

[١] قُدَيم تصغير مقدام بحذف الزوائد وهو تصغير ترخيم. عون المعبود .

[٢] ذكرهما أبو داود في باب العرافة من كتاب الخراج والفيء والإمارة .

[٣] قال في عون المعبود في شرح هذا الحديث: وهذا قاله صلى الله عليه وسلم تحذيرا من التعرض للرياسة والحرص عليها لما في ذلك من الفتنة، وأنه إذا لم يقم بحقها أثم واستحق العقوبة العاجلة والآجلة، كذا في السراج المنير، وفي اللمعات: العرفاء في النار أي على خطر وفي ورطة الهلاك والعذاب لتعذر القيام بشرائط ذلك، فعليهم أن يراعوا الحق والصواب اهـ .

لم يلوا عملا. رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ويل للأمراء ويل للعرفاء ويل للأمناء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يتذبذبون [٢] بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شيء. رواه أحمد من طرق رواة بعضها ثقات [٣]

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفا ولا شرطيا ولا جابيا ولا خازنا. رواه ابن حبان في صحيحه [٤]

وفي مجمع الزوائد والترغيب والترهيب، روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن في النار حجرا يقال له ويل، تصعد عليه العرفاء وينـزلون فيه . رواه البزار، وأبو يعلى [٥].

---

[١] الترغيب والترهيب في باب الترغيب في العمل على الصدقة بالتقوى، والترهيب من التعدي فيها والخيانة، وماجاء في المكاسين والعشارين والعرفاء من كتاب الزكاة .

[٢] يتذبذبون أي يصعدون وينـزلون ويتحركون، ولا يثبتون على حال .

[٣] الترغيب والترهيب، المرجع السابق .

[٤] نفس المصدر السابق .

[٥] الترغيب والترهيب، ومجمع الزوائد في باب العشارين والعرفاء وأصحاب المكوس من كتاب الزكاة .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقال: طوبى له إن لم يكن عريفا. رواه أبو يعلى وإسناده حسن إن شاء الله تعالى [١].

وعن مودود بن الحارث بن يزيد بن كريب بن يزيد بن سيف بن حارثة اليربوعي عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن رجلا من بني تميم ذهب بمالي كله، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس عندي ما أعطيكه، ثم قال: هل لك أن َتعرُف على قومك.؟ أو ألا أعرفك على قومك؟ قلت: لا، قال: أما إن العريف يدفع في النار دفعا رواه الطبراني في الكبير، ومودود لا أعرفه[٢].

وفي مجمع الزوائد في باب عمّال السوء وأعوان الظلمة من كتاب الخلافة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يكون في آخر الزمان أمراء ظلمة، ووزراء فسقة، وقضاة خونة، وفقهاء كذبة، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فلا يكونن لهم جابيا، ولا عريفا، ولا شرطيا رواه الطبراني[٣] اهـ.

---

[١] نفس المصدرين السابقين .

[٢] نفس المصدرين السابقين أيضا .

[٣] قال في مجمع الزوائد رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه داود بن سليمان الخراساني، قال الطبراني: لا بأس به، وقال الأزدي: ضعيف جدا، ومعاوية بن الهيثم لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات .

وفي مجمع الزوائد روى إبراهيم يعني ابن الأشتر أن أبا ذر حضره الموت وهو بالربذة فبكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ فقالت: أبكي أنه لاَيدَ لي بنفسك وليس عندي ثوب يسع لك كفنا، قال: لاتبكي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وأنا عنده في نفر يقول: ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين قال: فكل من كان في ذلك المجلس مات في جماعة وقرية، فلم يبق منهم غيري، وقد أصبحت بالفلاة أموت، فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول، فإني والله ما كَذَبتُ ولا كُذبتُ، قالت: وأني ذلك وقد انقطع الحاج؟، قال: راقبي الطريق قال: فبينا هي كذلك إذا هي بالقوم تخبّ بهم رواحلهم كأنهم الرّخم، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها فقالوا: مالك؟ فقالت: امرؤ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه، قالوا: ومن هو؟ قالت: أبوذر، ففدَوه بآبائهم وأمهاتهم، ووضعوا سياطهم في نحورها يبتدرونه فقال: أبشروا فأنتم النفر الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكم ما قال، أبشروا سمعت رسول الله يقول: ما من امرأين مسلمين هلك بينهما ولدان أوثلاثة فاحتسبا وصبرا فيريان النار أبدا، ثم قد أصبحت اليوم حيث ترون، ولو أن ثوبا من ثيابي يسع لم أكفن إلا فيه، فأنشدكم بالله أن لا يكفنني رجل منكم كان عريفا أو أميرا أو بريدا، فكل القوم كان قد نال من ذلك شيئا إلا فتى من الأنصار كان مع القوم، قال: أنا صاحبك، ثوبان في عيبتي من غزل أمي، قال: أنت صاحبي فكفّني . رواه أحمد . انتهى باختصار [1].

---

[1] مجمع الزوائد في باب ما جاء في أبي ذر رضي الله عنه من كتاب المناقب. وفيه رواه أحمد

وفي المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني عن أنس رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لابد للناس من عريف، والعريف في النار، قال: ويؤتى بالشرطي فيقال له: ضع سوطك وادخل النار . رواه أبو يعلى .

وروى أبو هريرة قال: العريف يفتح له كل عام باب من جهنم أو من النار .

وري أبوهريرة أيضا قال: العرافة أولها ملامة وآخرها ندامة يوم القيامة قلت: يا أباهريرة إلا من اتقى الله منهم قال: إنما أحدثكم كما سمعت[1] .

وفي تقرير على هذا الكتاب رواه ابن أبي عمر عن عبدالله بن عمرو ولفظهتإياكم والعرافة فإن أولها ملامة وأوسطها ندامة وإن آخرها عذاب يوم القيامة. قال البوصيري فيه راو لم يسم .

وعن محمد بن المنكدر قال: بينما عمر بن الخطاب يصلى على جنازة إذا بـ هاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله، فانتظره حتى لحق بالصف فكبر عمر وكبر معه الرجل فقال الهاتف: إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك فنظر عمر وأصحابه إلى الرجل فلما

من طريقين أحدهما هذه، والأخرى مختصرة، عن إبراهيم بن الأشتر عن أم ذر، ورجال الطريق الأولى رجال الصحيح. ورواه البزار بنحوه باختصار اهـ قلت: اختلفت النسخ في كلمات من هذا الحديث، فاخترت ما في بعض تلك النسخ بعد البحث من نسختين من المسند للإمام أحمد وثلاث نسخ من مجمع الزوائد، والله أعلم بالصواب .

[1] هذه الأحاديث الثلاثة من المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية في باب العرافة من كتاب الخلافة والإمارة .

دفن الميت وسوى الرجل عليه من تراب القبر قال: طوبى لك ياصاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا، قال عمر: خذوا لي الرجل نسأله عن صلاته وكلامه هذا ومن هو؟ فتوارى عنهم، فنظروا فإذا أثر قدمه ذراع، فقال: هذا والله الخضر الذي حدثنا عنه النبي رواه ابن عساكر[١].

وروى البخاري في كتاب العلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا وُسِدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[٢].

وروى الطبراني عن ابن مسعود حديث لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة فاسقهم.

وروى الترمذي من حديث أبي هريرة: وكان زعيم القوم أرذلهم، وساد القبيلة فاسقهم. وهو بعض حديث طويل، والله الموفق .

---

١ كنـز العمال، في فضل خضر، من كتاب الفضائل/ فضائل من ليسوا بالصحابة .

٢ رواه البخاري في باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتمّ الحديث ثم أجاب السائل من كتاب العلم .

المبحث الثالث: في **أهمية العدالة وفضلها، وذم الجور**

لقد ذكرنا الوعيد الشديد في العرفاء والأمراء ونحوهما، وهذا إذا جاروا ولم يعدلوا في وظائفهم وأعمال مناصبهم، وأما إذا عدلوا في تفصيل الخصومات ورد المظالم وأخذوا يد الظالم ونـهوا الظلم عن أبناء قبيلتهم ونصروا للمظلوم البعيد والقريب على السواء فلا ملام عليهم ، بل هم مثابون ثوابا عظيما ، وقد جاء في فضل العدالة آيات وأحاديث كثيرة ، كما ورد في ذم الجور أدلة كثيرة، فقال تعالى: **{إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى}** وقال تعالى: **{وإذا حكمتم** بين **الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان** سميعا **بصيرا}** وقال تعالى: **{وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين}** وقال تعالى: **{وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}** وقال تعالى: **{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين}** وقال تعالى: **{وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}** وقال تعالى: **{ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون}**

وفي الترغيب والترهيب : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال

فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه" رواه البخاري ومسلم.

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا ترد دعوتـهم، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين. رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أهل الجنة ثلاثة، ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال، رواه مسلم، المقسط العادل .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحا رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أشد أهل النار عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي، وإمام جائر، رواه الطبراني ورواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم، وفي الصحيح بعضه، ورواه البزار بإسناد جيد إلا أنه قال: وإمام ضلالة .

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يقبل الله لهم شهادة أن لا إله إلا الله فذكر منهم الإمام الجائر، رواه الطبراني في الأوسط .

وعن معاوية رضي لله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع، راه الطبراني ورواته ثقات، ورواه البزار بنحوه من حديث عائشة مختصرا، والطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد جيد، ورواه ابن ماجه مطولا من حديث أبي سعيد .

وروى الحاكم حديث: ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه الله في النار وهو في الصحيحين بغير هذا اللفظ .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة، قالوا: ماهي يارسول الله؟ قال: زلة عالم، وحكم جائر، وهوى متبع رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله المزني وهو واه، وقد احتج به الترمذي وأخرج له ابن خزيمة في صحيحه وبقية إسناده ثقات .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أباهريرة عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نـهارها، ويا أباهريرة جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصي ستين سنة. وفي رواية: عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة رواه الأصبهاني .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر، رواه الترمذي والطبراني في الأوسط مختصرا إلا أنه قال: أشد الناس عذابا يوم القيامة إمام جائر، وقال الترمذي حديث حسن غريب .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الناس عند الله منـزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله عند الله منـزلة يوم القيامة إمام جائر، رواه الطبراني في الأوسط من رواية ابن لَهِيْعَة، وحديثه حسن في المتابعات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة، وإن غلب جوره عدله فله النار، رواه أبو داود .

وعن رجل عن سعد بن عبادة قال: سمعته غير مرة ولا مرتين يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل، رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح إلا الرجل المبهم .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أويوبقه الجور، رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال البزار رجال الصحيح، وزاد في رواية: وإن كان مسيئا زيد غلا إلى غله، ورواه الطبراني في الأوسط بـهذه الزيادة أيضا من حديث بريدة .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من والى ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه، فكه عدله أو غله جوره، رواه ابن حبان في صحيحه من رواية إبراهيم بن هشام الغساني[1] انتهى ما نقلته من الترغيب والترهيب .

وفي مجمع الزوائد عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلُع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره، رواه أحمد، وفيه خالد بن طهمان، وثقه أبو حاتم الرازي، وابن حبان، وقال: يخطئ وَيَهِمُ، وبقية رجاله ثقات .

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لاتزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت، رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط، وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، وهو متروك .

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قتلتم فأحسنوا، فإن الله عزّ وجلّ محسن يحب المحسنين،

---

[1] الترغيب والترهيب، في باب ترغيب من ولى شيئا من أمور المسلمين في المسلمين، إماما كان أو غيره، وترهيبه أن يشق على رعيته أو يجور من كتاب القضاء وغيره .

رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات[1] انتهى ما نقلته من مجمع الزوائد .

وفي الدر المنثور في التفسير بالمأثور أن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام قال:يارب أيّ شيء وضعت في الأرض أقلّ؟ قال: العدل أقلّ ما وضعت اهـ .

---

[1] مجمع الزوائد في باب العدل والجور من كتاب الخلافة .

الفصل الرابع: في أسماء طبقات الأنساب

اعلم أن للأقارب أسماء تجمعها وترتبط بـها على حسب تباعد أنسابـها وتقاربـها.

فمنها: الشعب والقبيلة والعشيرة والرهط والفصيلة، وهذه الخمسة مذكورة في القرآن الكريم، والحي والفخذ والعمارة والبطن والجماجم والقرابة .

قال الشيخ أبو الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي في سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب: اتفقت العرب فيما نقل إلينا على أن جعلت أنساب العرب ست طبقات وكذلك عدها أهل اللغة، وهي الشعب، بفتح الشين والقبيلة، والعمارة بكسر العين، والبطن، والفخذ، والفصيلة، هكذا رتبه الماوردي في الأحكام السلطانية، وعلى نحو ذلك جرى الزمخشري في تفسيره في الكلام على قوله تعالى: **{وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}** ومثل للشعب بخزيمة وللقبيلة بكنانة وللعمارة بقريش وللبطن بقصي، وللفخذ بـهاشم، وللفصيلة بالعباس.

وذكر ابن منظور في لسان العرب نحوه.

وفي تفسير القرطبي: حكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن ثم الفخذ، وقيل: الشعب ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة، وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**}:

الشعوب أعم من القبائل وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك اهـ .

تفسير الشعب والقبيلة، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**وجعلناكم شعوبا وقبائل**}: قيل: المراد بالشعوب بطون العجم وبالقبائل بطون العرب كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل .

وقال القرطبي في تفسير الآية المذكورة: الشعوب رؤوس القبائل مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها شعب بفتح الشين، قال ابن عباس: الشعوب الجمهور مثل مضر، والقبائل الأفخاذ .

قال الشاعر:

قبائل من شعوب ليس فيهم   كريم قد يُعـد ولا نجيب

وقيل: الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي، والقبائل هم المشركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرقوا شعبا فكل جزيرة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

وفي سبائك الذهب: الشعب هو النسب الأبعد كعدنان مثلا، قال الجوهري: هو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، ويجمع على شعوب، قال الماوردي: وسمي شعبا لأن القبائل تتشعب منه، وذكر الزمخشري في كشافه نحوه.

والقبيلة هي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر. قال الماوردي: سميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وتجمع القبيلة على قبائل اهـ .

الجماجم هي القبائل، قال في سبائك الذهب: ربما سميت القبائل جماجم كما يقتضيه كلام الجوهري حيث قال: جماجم العرب هي القبائل تجمع البطون.

العشيرة كما قال ابن منظور في اللسان نقلا عن الليث: المعشر كل جماعة أمرهم واحد نحو معشر المسلمين. والمعشر والنفر والقوم والرهط معناهم الجمع لاواحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء. والعشير القريب والصديق وعشير المرأة زوجها لأنه يعاشرها وتعاشره قال صلى الله عليه وسلم: إنكن أكثر أهل النار، فقيل: لم يارسول الله؟ قال: لأنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وهو الزوج. وقوله تعالى: {**لبئس المولى ولبئس العشير**} أي المعاشر.

الرهط مثل العشيرة، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {**ولولا رهطك لرجمناك**} رهط الرجل عشيرته الذي يستند إليهم ويتقوى بـ ـهم .

الفصيلة بالصاد المهملة هي كما في سبائك الذهب ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبني العباس وبني عبد المطلب .

وفي اللسان: فصيلة الرجل عشيرته ورهطه الأدنون، وقيل: أقرب آبائه إليه، وكان يقال للعباس: فصيلة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال ابن الأثير: الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان .

العمارة كما في سبائك الذهب هي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة، وتجمع على عمارات وعمائر.

البطن كما في سبائك الذهب هي ما انقسم فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم وتجمع على بطون وأبطن.

الحي كما في لسان العرب: البطن من بطون العرب، وقال الأزهري: الحي من أحياء العرب يقع على بني أب كثروا أم قلوا وعلى شعب يجمع القبائل.

الفخذ قال في اللسان: فخذ الرجل نفره من حيه الذين هم أقرب عشيرته إليه وهو أقل من البطن، وقال في سبائك الذهب: الفخذ هو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم وبني أمية ويجمع على أفخاذ.

القرابة والقربى هي كما في اللسان الدنو في النسب، ومنهم من يجيز فلان قرابتي، وأقارب الرجل وأقربوه عشيرته الأدنون .

فهذه هي طبقات الأنساب التي ترتبط بـها الأقارب وتتناصربـها وتتفاخر، ولأجلها تأخذها الأنفة والحمية وهي منشأ العصبية وأصلها .

واعلم أن العصبية تكون واقعة بين الطبقات العالية كالشعوب والقبائل فيقتل بعضهم بعضا، ثم تنـزل إلى الطبقات المتوسطة كالعشائر والفصائل فيتحاربون وقد كانوا بالأمس في صف واحد، ثم تنـزل إلى ما دون ذلك فكثيرا ما ترى القبيلة التي كانت بالأمس متماسكة متناصرة منقسمة اليوم إلى أفخاذ وفصائل متعادية متحاربة فيقتلون من كانوا يدافعون عنه أمس بأرواحهم وأموالهم، ثم تنـزل إلى أسفل من ذلك حتى تكون بين بني الأعمام بل وبين َبنِي الأب الواحد يتعصب بعضهم لبعض بالأم فيزعم أن هذا شقيقي وابن أمي، وهذا لم تلده أمي، وقد يقع بينهم ما يقع بين القبائل والفصائل من التحاسد والمكايد كما وقع بين أبناء يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنـهم صاروا فئتين، فئة بني راحيل

وهم اثنان فقط يوسف عليه السلام وبنيامين، وفئة بني ليا بنت ليان[١] وكانوا عشرة وكان منهم ماكان من القطيعة والقسوة، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة يوسف .

فعاقبة العصبية المقاطعة بعد المعانقة، والعداوة بعد المودة، والوحشة بعد الألفة، والجفاء بعد الوصال والإخاء، هذا هو الواقع فعلا في زماننا فنرى بأعيننا أن القبائل يتباغضون ويقتتلون فيما بينهم اليوم وقد كانوا بالأمس يتعاونون على الظلم ويتناصرون بالعصبية .

وهذا جزاء من أعان ظالما على ظلمه فقد قال من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم: من أعان ظالما سلطه الله عليه [٢]

ومن الحماقة أن تعين اليوم ظالما للعصبية وأنت تعلم أن الله يسلطه عليك غدا فيظلمك أو يقتلك.

واعلم أن الله تعالى أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى ونـهاهم عن التعاون على الظلم، فقال جل شأنه: وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان. فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. وقال صلى الله عليه وسلم: من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام. رواه الطبراني[٣] عن أوس بن شُرَحْبِيْل .

---

[١] تفسير القرطبي في سورة يوسف .

[٢] رواه ابن عساكر عن ابن مسعود كما في الجامع الصغير .

[٣] قال في مجمع الزوائد في باب من أعان في خصومة من كتاب الأحكام رواه الطبراني في الكبير، وفيه عياش بن مؤنس، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله وثقوا، وفي بعضهم كلام .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعان ظالما بباطل ليدحض بباطله حقا فقد برئ من ذمة الله عز وجلّ وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم. رواه الطبراني[١]

[١] قال الهيثمي رواه الطبراني في الثلاثة، وفي إسناد الكبير حنش وهو متروك، وزعم أبو محصن: أنه شيخ صدق، وفي إسناد الصغير والأوسط سعيد بن رحمة وهو ضعيف اهـ قلت: وهذا لفظ المعجم الصغير جـ ١ص٨٢ من الطبعة الأولى في سنة ١٤١٨هـ .

الفصل الخامس: فيما يتعلق بالأنساب

وفيه مباحث تسعة وملاحظة وفائدة

المبحث الأول: في **أن التفاضل بتقوى الله تعالى وليس بالانتساب إلى القبائل ولا بالأحساب**

المبحث الثاني: في **أن النسب لاينفع صاحبه ولا يضره يوم القيامة**

المبحث الثالث: في **إنذار العشيرة والتبري من أعمالها السيئة**

المبحث الرابع: في **التحذير من مودة العشيرة العاصية المخالفة لأمر الله تعالى وفي التبري من أعمالها السيئة**

المبحث الخامس: في **أن الموالاة في الإسلام أهم وأحق من الموالاة في النسب**

المبحث السادس: في **أن نسب النبي صلى الله عليه وسلم ينتفع به في الدنيا والآخرة**

المبحث السابع: في **انتفاع الذرية بصلاح أصولهم في الآخرة وعكسه وعدم تضررهم بعصيانـهم**

المبحث الثامن: في **انتفاع الأولاد بصلاح آبائهم في الدنيا**

المبحث التاسع: في **أن ذنوب الأصول وعصيانـهم لايضر الفروع**

المبحث الأول: في أن التفاضل بتقوى الله تعالى وليس بالانتساب إلى القبائل ولا بالأحساب

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}**: أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: روى الطبري في كتاب آداب النفوس بسنده عن أبي نضرة قال: حدثني أو حدثنا من شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: ياءيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني، قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حبيب بن خراش العصري يحدث عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أنسابكم ليست بمسبة على أحد، كلكم بنو آدم طف الصاع[1] لم يملؤه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا .

وقد رواه ابن جرير ولفظه: الناس لآدم وحواء طف الصاع لم يملؤوه إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: يارسول الله أي الناس أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم: خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله

---

[1] قال الحافظ المنذري : طف الصاع : بالإضافة أي قريب بعضكم من بعض. وفي لسان العرب: يقال: هذا طف المكيال وطَفافه وطِفافه إذا قارب ملئه ولما يُمْلأ ولذا قيل للذي يسيء الكيل ولا يوفيه: مُطَفِف، وفي الحديث: كلكم بنو آدم طف الصاع لم تملئوه، وهو أن يقرب أن يمتلأ فلا يفعل، قال ابن الأثير: المعنى كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنـزلةٍ واحدةٍ في النقص والتقاصر عن غاية التمام، وشبههم في نقصانـهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ولكن بالتقوى اهـ.

عز وجل وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم اهـ من تفسير ابن كثير .

وقال ابن كثير أيضا: جميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون في الأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضا منبها على تساويهم في البشرية: **{ياءيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير} اهـ .**

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون. رواه الطبراني في الصغير والأوسط، والبيهقي مرفوعا وموقوفا [(١)].

وروى الإمام البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا أرى أحدا يعمل بهذه الأية: {**ياءيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**} حتى بلغ إن أكرمكم عند الله أتقاكم. فيقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك فليس أحد أكرم من أحد إلا بتقوى الله.

وقال ابن عباس: ما تعدون الكرم؟ قد بين الله الكرم فأكرمكم عند الله أتقاكم، ما تعدون الحسب ؟ أفضلكم حسبا أحسنكم خُلُقا.

---

[1] مجمع الزوائد في باب لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى من كتاب الأدب، والترغيب والترهيب في باب الترهيب من احتقار المسلم من كتاب الأدب وغيره .

وروى البخاري في الأدب المفرد أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أوليائي يوم القيامة المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب، فلا يأتيني الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونـها على رقابكم فتقولون: يامحمد، فأقول: هكذا. وأعرض في كلا عطفيه [1]

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: **{إن أكرمكم عند الله أتقاكم}:** ذكر الطبري حدثني عمر بن محمد قال: حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال: حدثنا مندل بن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوج رجل من الأنصار امرأة فَطُعِنَ عليها في حسبها، فقال الرجل: إني لم أتزوجها لحسبها إنما تزوجتها لدينها وخُلُقِهَا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يضرك أن لا تكون من آل حاجب بن زرارة، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيسة وأتم به الناقصة وأذهب به اللّوم، فلا لوم على مسلم إنما اللّوم لوم الجاهلية.

وقال القرطبي أيضا: كانت أخت عبد الرحمن بن عوف تحت بلال، وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة. وخطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابه، وخطب إلى عمر ابنته فالتوى عليه، ثم سأله أن يُنكِحها فلم يفعل سلمان، وخطب بلال بنتَ البكير فأبى إخوتـها فقال بلال: يارسول الله، ما ذا لقيت من بني البكير !! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال، فبلغهم

---

[1] روى هذه الأحاديث الثلاثة البخاري في الأدب المفرد في باب الحسب .

الخبر فأتوا أختهم فقالوا: ما ذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوّجوها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أبي هند حين حجمه: أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه . وهو مولى بني بياضة .

وروى الدارقطني من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاما فحجم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن ينظر إلى من صوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنكحوه وأنكحوا إليه .

المبحث الثاني: في **أن النسب لا ينفع صاحبه ولا يضره يوم القيامة**

قال الله تعالى: **{فإذا نفخ** في **الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}** قال النيسابوري في تفسير هذه الآية: ليس المراد به نفي النسب لأن ذلك ثابت بالحقيقة فإذن المراد حكمه وما يتفرع عليه من التعاطف والتراحم والتواصل، فقد يكون أحد القريبين في الجنة والآخر في النار، ويكون بكل مكلف من اشتغال نفسه ما يمنعه من الإلتفات إلى أحوال نسبه. وقال النيسابوري أيضا: الجمع بين قوله تعالى: ولا يتساءلون وبين قوله: **{وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}**: ظاهر لأن هذا في صفة أهل الموقف وذاك في صفة أهل الجنة، ولو سلم أن كليهما في وصف أهل الموقف فلم نسلم اتحاد المواطن والأزمنة وغيرها من الاعتبارات التي يقع فيها التساؤل كحقوق النسب ونحوها اهـ .

وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى:**{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}**: اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: فإذا نفخ في الصور من النفختين أيتهما عني بـها، فقال بعضهم: عني بذلك النفخة الثانية، ثم ذكر ابن جرير مارواه بسنده عن زاذان قال: أتيت ابن مسعود وقد اجتمع الناس إليه في داره فلم أقدر على مجلس فقلت: يا أبا عبد الرحمن من أجل أني رجل من العجم تحقرني؟ قال: أدن، قال: فدنوت فلم يكن بيني وبينه جليس فقال: يوخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة على رؤوس الأولين والآخرين قال: وينادي مناد: ألا إن هذا فلان بن فلان فمن كان له حق قبله فليأت إلى حقه، قال: فتفرح المرأة يومئذ أن يكون لها حق على ابنها، أو على أبيها أو على أخيها، أو على زوجها فلا أنساب بينهم

يومئذ ولا يتساءلون، وروى ابن جرير عن ابن مسعود بطريق آخر نحو هذا.

وقال آخرون عني بـها النفخة الأولى، ثم ذكر ابن جرير بسنده أن سعيد بن جبير قال: إن رجلا أتى ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: **{فلا أنساب بينهم يومئذ}** الآية. وقال في آية أخرى: **{وأقبل بعضهم علىبعض يتساءلون}** فقال: أما قوله: **{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}** فذلك في النفخة الأولى فلا يبقى على الأرض شيء **{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}**، وأما قوله: **{فأقبل بعضهم على بعض يتسالون}** فإنـهم لما دخلوا الجنة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

وروى السدي مثل ذلك أيضا، قال أبو جعفر: فمعنى ذلك على هذا التأويل فإذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم يومئذ، يتواصلون بـها ولا يتساءلون ولا يتزاورون فيتساءلون عن أحوالهم وأنسابـهم اهـ

وروى ابن جرير والنيسابوري في تفسيريهما عن قتادة قال: ليس شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثم قرأ: **{يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه}** .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}**: أي لا تنفع الأنساب يومئذ ولا يرثي والد لولده، قال الله تعالى: **{ولا يسئل حميم حميما}** أي لا يسئل القريب قريبه وهو يبصره

ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا يحمل عليه وزن جناح بعوضة.

قال الله تعالى: **{يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه}**.

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو زوجته ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى: **{فإذا نفخ** في **الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}**، رواه ابن أبي حاتم اهـ.

وقال ابن كثير أيضا في تفسير قوله تعالى: **{ولا يسئل** حميم **حميما يبصرونـهم}** أي لا يسئل قريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوء الأحوال فتشغله نفسه عن غيره، قال العوفي عن ابن عباس: يعرف بعضهم بعضا ويتعارفون بينهم ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: {**لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**}. وقال تعالى: **{يود المرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته** التي **تؤويه ومن** في **الأرض** جميعا ثم **ينجيه كلا}**. قال ابن كثير: أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به ولا يقبل منه، قال مجاهد والسدي: فصيلته" قبيلته وعشيرته. وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم، وقال أشهب عن مالك: فصيلته" أمه، وقال ابن كثير: هذه الآية كقوله تعالى: **{ياءيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا** يجزي **والد عن ولده ولا مولود هو جاز**

عن والده شيئا إن وعد الله حق}، وكقوله تعالى: **{وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى}**، وكقوله تعالى: **{فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم}** الآية، وكقوله تعالى: **{يوم يفر المرأ من أخيه}** . الآيات.

وروى مسلم في صحيحه في باب فضل الاجتماع من كتاب الذكر والدعاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه.

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث[1]: معناه من كان ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء، ويقصّر في العمل .

وروى هذا الحديث أيضا كما في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي وابن حبان والحاكم .

قال ابن حجر الهيتمي في فتح المبين في شرح هذا الحديث: فليحذر كل عاقل غاية الحذر من أن يتكل على شرف نسبه وفضيلة آبائه ويقصّر فإن ذلك يورثه غاية النقص والانحطاط عن معاليهم ونـهاية الحسرة والندامة على التخلف عن كمالهم، ومن ثم كان التفاخر بالآباء من أخلاق الجاهلية.

---

[1] شرح مسلم جـ٩ص٢٨ .

قال تعالى: **{فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون}**. وقال صلى الله عليه وسلم: ائتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم، وقال لمن تعلم الأنساب: علم لا ينفع وجهالة لا تضر اهـ.

وما أحسن قول القائل:

وما الفخر بالعظم الرميم وإنـما   فخار الذي يبغي الفخار بنفسه

وقال الآخر:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دِيْنِه   فلا تترك التقوَى اتّكالا على النسب
فقد رفع الإسلامُ سلمان فارس   وقد وَضعَ الشركُ الخبيثَ أبا لهب

وأجاد القائل:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم   وحبك للدنيا هو الـذل والعـدم
وليس على عبد تقـي نقيصـة   إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

فليس الشرف الحقيقي في الانتساب إلى القبائل، بل في الاتصاف بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

وقال في المرقاة شرح المشكاة[1] في شرح حديث من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه .. إن أكثر علماء السلف والخلف لا أنساب لهم يُتَفَاخَرُ بـها، بل كثير من علماء السلف موال، ومع ذلك هم سادات الأمة وينابيع الرحمة، وذوو الأنساب العلية الذين ليسوا كذلك كانوا في مواطن جهلهم نسيا منسيا، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: إن الله يرفع بـهذا الدين أقواما ويضع به آخرين .

---

[1] المرقاة جـ ١ص٢٧٢ .

قلت: وهذا في غير نسبه صلى الله عليه وسلم فإنه لا ينقطع في الآخرة، وكذلك أنساب الصالحين فإنـها تنفع في الأخرة، ويأتي ذلك كله إن شاء الله .

المبحث الثالث: في **إنذار العشيرة والتبري من أعمالها السيئة**

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: **{وأنذر عشيرتك الأقربين}**

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: لئلا يتكلوا على أنفسهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم، فخص صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين بالإنذار لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك.

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: **{وأنذر عشيرتك الأقربين}** صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريس فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم[(١)] أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني يذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبالك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنـزلت تبت يدا أبي لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وماكسب .

وروى البخاري أيضا في تفسير سورة تبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: أريتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج

---

[١]قال ابن كثير في تفسيره: روى أبو يعلى بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: يابني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد .

من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام فنـزلت تبت يدا أبي لهب وتبّ –وقد تبّ- هكذا قرأها الأعمش يومئذ .

وروى مسلم في صحيحه في باب قوله تعالى: **{وأنذر عشيرتك الأقربين}** من كتاب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الأية **{وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين}**[1] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف ياصباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد صلى الله عليه وسلم، فاجتمعوا إليه فقال: يابني فلان، يابني فلان، يابني فلان ، يابني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من

---

[1] قوله ورهطك منهم المخلصين بفتح اللام، قال القرطبي في تفسيره والنووي في شرح مسلم: ظاهر العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته اهـ قال القرطبي: ولم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر، ويلزم على ثبوته إشكال وهو أنه كان يلزم عليه الصلاة والسلام أن لا ينذر إلا من آمن من عشيرته فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون لأنـهم ليسوا على شيء من ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم فلم يثبت ذلك نقلا ومعنى. قال الحافظ العسقلاني في فتح الباري بعد ذكر استشكال القرطبي: الجواب عن ذلك أنه لا يمتنع عطف الخاص على العام وقوله وأنذر عشيرتك الأقربين عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنويها وتأكيدا. وقال العسقلاني: ولعل قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين نزل أولا فجمع قريشا فعم ثم خص ثم نزل ثانيا ورهطك منهم الخلصين فخص ذلك بني هاشم ونساءه والله أعلم .

سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال: فقال أبولهب: تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام فنــزلت هذه السورة: {**تبت يدا أبي لهب وقد تبّ**}، كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة (١)

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: **{وأنذر عشيرتك الأقربين}** دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعمّ وخص فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها (٢)

وقال القرطبي: في هذا الحديث والأية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليلٌ على جواز صلة المؤمن الكافرَ وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم: إن لكم رحما سأبلها ببلالها، وقوله عز وجل: **{لا ينهاكم الله عن الذين** لم **يقاتلوكم** في **الدين}** الآية .

---

[1] قال الإمام النووي في شرح مسلم في شرح هذا الحديث: معناه أن الأعمش زاد لفظة -قد- بخلاف القراءة المشهورة.

[2] قال النووي في شرح هذ الحديث: بفتح الباء الثانية وكسرها، وهما وجهان مشهوران، والبلال الماء، ومعنى الحديث سأصلها، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة، ومنه بلّوا أرحامكم أي صلوها اهـ

ملاحظـة

اعلم أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ياءيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحا الحديث. فكما أمر الله رسوله بانذار عشيرته الأقربين كذلك كل مؤمن بالله وبرسوله مأمور بإنذار عشيرته لا سيما الرهط المخلصين منهم إمتثالا لأمر الله تعالى واقتداء به صلى الله عليه وسلم، وذلك من البر والإحسان إليهم .

وقد كان الأنبياء والرسل والعلماء والصالحون ينذرون قومهم وعشيرتـهم ، ويبلغونـهم رسالات ربـهم، ومن ذلك خليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فقد أنذر أباه آزر، قال الله تعالى: {**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين**} وقال تعالى: {**إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا**}، وأنذر مؤمن آل فرعون قومه ودعاهم إلى دين ربـهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وذكر الله سبحانه قصته في القرآن، فقال تعالى: {**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم**} الآيات وقال :{**ياقوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد**} وقال: {**فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد**} كما أنذر حبيب النجار قومه قال تعالى: {**وجاء من أقصى المدينة رجل**

يسعى قال ياقوم اتبعو المرسلين} الآيات فينبغي لكل مؤمن أن يسلك مسلك هؤلاء ويهتدي بـهديهم ويبذل قصارى جهده في نصيحة أقاربه وإنذار عشيرته من عذاب ربـهم وأليم عقابه ، ويبشرهم بما أعد الله به للمطيعين المعتصمين بحبله المتين ، فهذا هو الحب الحقيقي ، والنفع اليقيني للأهالي والأقارب، لا ما يتخيله المتعصبون ، ويتوهمه المبطلون من أن إعانة قومك على الظلم رجولة وشرف وإنقاذ من لحوق العار بعرضهم، ولم يعلم أنه ساع في هلاك نفسه وهلاك عشيرته ، وقد قال تعالى جل شأنه: {**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودهاالناس والحجارة}** فهل يتشرف ويفتخر عاقل مسلم بمخالفة أمر ربه وعصيان خالقه، وليس الخوف عن تعيير السفهاء وإطلاق ألسنتهم بعذر مقبول عند من له عقل سليم، فما لوم الأغبياء يقابل بما يلقاه من غضب ذي الجلال والكبرياء .

المبحث الرابع: في **التحذير من مودة العشيرة العاصية المخالفة لأمر الله تعالى** وفي **التبري من أعمالها السيئة**

قال الله تعالى: **{وأنذر عشيرتك الأقربين}** إلى قوله: **{فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم}**. يعني توكل على ذي العزة والرحمة في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك[1]

وقال ابن جرير الطبري يقول تعالى: فإن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان والإشراك بالرحمن فقل لهم: إني بريء مما تعملون من عبادة الأصنام ومعصية بارئ الأنام، وتوكل على العزيز في نقمته من أعدائه، الرحيم بمن أناب إليه وتاب من معاصيه اهـ .

وقال تعالى لنوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في التبري من أعمال المعاندين من قومه بعد الإنذار والوعظ: **{قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون}** .

وقال تعالى: **{لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم}**. الآية

---

[1] من تفسير ابن كثير .

قال ابن جرير الطبري: يعني لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ونـهيه **{ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانـهم أو عشيرتـهم}** اهـ .

وقال ابن كثير في آخر تفسير سورة المجادلة: استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يوخذ منهم قوة للمسلمين، وقال: هم بنو العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله، هل تمكنني من فلان[1] قريب لعمر فأقتله وتمكن عليا من عقيل وتمكن فلانا من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين. ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: **{رضي الله عنهم ورضو عنه}**: سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القريب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم اهـ .

وقال تعالى: **{قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم- إلى قوله: أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره }**.

قال ابن كثير: في هذه الآية أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله اهـ .

وقال القرطبي: في هذه الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله ولا خلاف في ذلك بين الأمة وأن ذلك مقدم على كل محبوب .

---

[1] وفي البداية والنهاية جـ ٣ص٢٩٧. ولكن أرى أن تمكنني-بدل قوله هنا هل تمكنني .

المبحث الخامس: في أن الموالاة في الإسلام أهمّ وأحقّ من الموالاة في النسب

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حُدِثْتُ أن أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر صكة فسقط، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفعلت يا أبابكر؟ فقال: والله لو كان السيف مني قريبا لضربته فنـزلت : **{لا تجد قوما يؤمنون بالله}** الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه وابن عساكر عن عبد الله بن شوذب، قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدّى[1] لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قَصَدَهُ أبو عبيدة فقتله فنـزلت: **{لا تجد قوما يؤمنون بالله}** اهـ .

وفي تفسير القرطبي في تفسير هذه الآية: أن أبابكر رضي الله عنه دعا ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَتِّعْنَا بنفسك يا أبابكر، أما تعلم أنك عندي بمنـزلة السمع والبصر .

وأن مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وأن عليّا وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر اهـ .

---

[1] وفي القاموس وشرحه: تصدّى له: تعرّض رافعا رأسه إليه . وفي مختار الصحاح: تصدى له تعرض، وهو الذي يستشرفه ناظرا إليه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: لما قدموا المدينة[١] سَل عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ على أبيه السيف وقال: لأضربّنك أو تقول: أنا الأذلّ ومحمد الأعزّ، فلم يبرح حتى قال ذلك .

وفي السيرة النبوية لابن هشام: قال ابن اسحق: كان أبوعزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، فقال أبو عزيز: مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال ابن هشام: وكان أبوعزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي[٢]؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك، فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بـها[٣].

فكان طبع الصحابة رضي الله عنهم ومن اهتدى بـهديهم تقديم أخوّة الدين على أخوّة النسب، فينبغي لكل مسلم أن يسلك سبيلهم ويقتفي آثارهم، فهم قدوتنا وسندنا، وآباؤنا في الدين، فإنـهم الناقلون لنا الدين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغون عنه.

وكذلك التابعون وأتباعهم إلى مشايخنا، فكلهم آباء وأجداد لنا، جزاهم الله عنا خير الجزاء، فلهم علينا مثل حق الوالد والوالدة .

---

١ أي في رجوعهم عن غزوة بني المصطلق .

٢ قال في القاموس وشرحه: وصّاه توصية عهد إليه، والاسم الوَصاة والوصاية، بالكسر والفتح.

٣ السيرة النبوية لابن هشام، طبعة: دار المنار، سنة ١٤١٠هـ جـ١ص٥٦٨ .

وقال الإمام النووي رحمه الله في تـهذيب الأسماء واللغات إن سلسلة الفقه يعني السند من المطلوبات المهمات والنفائس الجليلات التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، ويقبح به جهالتها، فإن الشيوخ في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب مع انه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم اهـ .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فى الإحياء : حق المعلم يعنى الدال على الخير والآخرة أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية اهـ .

وقال بعضهم : أبو الإفادة أنفع من أبى الولادة .

ولقد أجاد القائل :

أقدم استاذى على فضل والدى ... وإن كان لى من والدى البر واللطف
فهذا مربى الروح والروح جوهر ... وهذا مربى الجسم وَهْوَ لها صَـدف

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الوالد الأعظم، والأب الأكرم، فكما أن زوجاته صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين كذلك هو أب للمؤمنين، فقد قال الإمام النووي في تـهذيب الأسماء واللغات: قال البغوي من أصحابنا: ويقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أبو المؤمنين والمؤمنات، و نقل الواحدي عن بعض أصحابنا أنه لا يقال ذلك، لقوله تعالى: **{ما كان محمد أبا أحد من رجالكم}** قال: ونصّ الشافعي على جوازه، أي أبوهم في الحرمة، قال: ومعنى الآية: ليس أحد من رجالكم ولد

صلبه . وفي الحديث الصحيح في سنن أبي داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما أنا لكم مثل الوالد [1]اهـ .

وأما سائر المؤمنين فهم إخوة بنص قوله تعالى: **{إنما المؤمنون إخوة}** وهذه الأخُوةُ ثابتة مستقرة لا تنقطع أبدا حتى بين القاتل والمقتول، فجريمة القاتل مهما عظمت لا تَقْطَعُ هذه الأخُوّة الْمَتِيْنَة، قال تعالى: **{فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف}** أي فمن عفى له من دم أخيه المقتول شيء . ففي الآية أن المقتول أخ لقاتله، فثبت حينئذ أن المؤمنين كلهم إخوة، ولكل منهم حق الأخُوة كما أن على كل منهم حقَها من الإحسان والشفقة والمحبة فيما بينهم، فلا يليق بـهم حينئذ الخلاف والتعصب والتباغض والتنافر، بل المطلوب منهم شرعا التماسك والتكاتف، والائتلاف والتواصل، وقد قال الله تعالى:**{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض}** فمن أين يكون تباغض الأولياء وتقاطعهم، وتعصّب بعضهم لبعض ظلما وعدوانا، حاشا لله ما هذا إلا فكر ضعيف، ورأي سخيف، والله الهادي وهو الخبير اللطيف.

وقال بعض الصالحين: إن الأكبر منك سنا من المسلمين فهو مثل والدك، والأصغر منك سنا فهو مثل ولدك، ونظيرك في السن فهو أخوك. فعليك أن تعرف حق والدك وترحم لولدك، وتحترم أخاك، والله الموفق

---

[1] تـهذيب الأسماء واللغات في فصل خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المبحث السادس: فى **أن نسب النبي صلى الله عليه وسلم يُنْتَفَعُ به** في **الدنيا والآخرة**

ذكرنا أن الأنساب تنقطع يوم القيامة وهذا فى غير نسبه صلى الله عليه وسلم وأنساب الصالحين ، فقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{فلا أنساب بينهم يومئذ}**: روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاطمة بضعة مني يغيظني ما يغيظها وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري .

وروى الإمام أحمد أيضا عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر: ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم قال رجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم: أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى .

ولما تزوج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمَ كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله مابي إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب[١] ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي[٢] رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي

---

[١] أي المصاهرة والزواج .

[٢] قال المناوي: وهذا لا يعارضه قوله في أهل بيته: لا أغني عنكم من الله شيئا لأن معناه أنه لا يملك لهم نفعا لكن الله يملكه بنفعهم بالشفاعة فهو لا يملك إلا أن ملّكه الله ربه اهـ عزيزي.

والحافظ الضياء في المختارة، وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا إعظاما وإكراما رضي الله عنه [١]

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري .

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعا سألت ربي عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتي ولا يتزوج إليّ أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك، انتهى ما نقلته من تفسير ابن كثير ملخصا .

وفى مجمع الزوائد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى [٢].

=وقال الحفني في حاشيته على السراج المنير: أي فمن كان له مصاهرة أو قرابة له صلى الله عليه وسلم أكرمه الله بـها زيادة على العمل الصالح .

[١] وروى حديث خطبة أمير المؤمنين عمر أمَ كلثوم بنت علي- ابن سعد وسعيد بن منصور والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: منقطع. حياة الصحابة جـ ٢ص٤٨.

[٢] قال الهيثمى رواه الطبراني ورجاله ثقات

المبحث السابع: فى **انتفاع الذرية بصلاح أصولهم** فى **الآخره وعكسه، وعدمه تضررهم بعصيانهم**

قال الله سبحانه وتعالى: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء}** .

قال ابن كثير في تفسير هده الآية: يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك .

وروى الحافظ الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: يارب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به، وقرأ ابن عباس: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم}** الآية.

وقال الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان}** الآية .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال في قول الله تعالى: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم}**، هم ذرية المؤمن

يموتون على الإيمان، فإن كانت منازلهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئا .

وقال القرطبي في تفسر هذه الآية: اختلف في معناها، فقيل عن ابن عباس أربع روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه وتلا هذه الآية.

ورواه النحاس مرفوعا في الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه، ثم قرأ: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان}** الآية.

قال أبو جعفر: فصار الحديث مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله.

وفي رواية ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذرية كقوله تعالى: وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون.

وعن ابن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم: إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول: يارب إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به.

وقال في حاشية الجمل على تفسير الجلالين: الذريات هنا تصدق على الآباء والأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله كثيرا ألحق به من هو دونه في العمل

أبا كان أو ابنا، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره. ويلحق بالذرية من النسب الذرية من السبب وهو المحبة، فإن كان معها أخذ علم أو عمل كانت أجدر، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة اهـ خطيب.

وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية: اختلف أهل التأويل فى ذلك فقال بعضهم: معناه والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم، المؤمنين في الجنة وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم المؤمنين وما ألتنا آباءهم المؤمنين من أجور أعمالهم من شيء، ثم نقل ابن جرير بسنده هذا المعنى عن ابن عباس بطرق، فمما قال ابن عباس: إن الله تبارك وتعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ هذه الآية .

وفي لفظ آخر: إن الله تبارك وتعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته. وفي آخر: المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به وإن كانوا دونه في العمل .

وقال آخرون: بل معنى ذلك والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم فأدخلناهم الجنة بعمل آبائهم وما ألتنا الآباء من عملهم من شيء . ثم ذكر ابن جرير بمن فسّر الآية بهذا المعنى، منهم سعيد بن جبير وغيره، وذكر ابن جرير أقوالا أخرى، ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلّ عليه ظاهر التنزيل القول الذي ذكرناه عن ابن عباس اهـ .

وحاصل ما ذهب إليه ابن عباس في تفسير هذه الآية أن الذرية تلحق بآبائهم في الجنة وتجعل معهم في درجاتهم وإن قصرت أعمال الذرية

عن أعمال آبائهم تكرمة لأبائهم، ولا ينقص من أجور عملهم شيء. فهذا نسب لا ينقطع في الآخرة بل ينفع فيها لامحالة .

وقال القرطبي في تفسير سورة غافر: قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة فيقول: يارب أين أبي وجدي وأمي؟ وأين ولدي وولد ولدي، وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك فيقول: يارب كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة. ثم تلا: **{الذين يحملون العرش ومن حوله** إلى **قوله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم}**. ويقرب من هذه الآية قوله: **{والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم}** اهـ .

ومثله في تفسير ابن جرير وابن كثير مختصرا .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم وما نقصنا العالي حتى ساوى الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلا منّا ومنّة اهـ .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم}**، أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم.

وقال الجلال السيوطي في تفسيره لهذه الآية: يكونون في درجاتـهم تكرمة لهم وإن لم يعملوا بعملهم.

فعلم مما ذكرناه أن الانتساب إلى الصالحين ينفع ذرياتـهم، وأن صلاح الأولاد ينفع أصولهم في الآخرة.

المبحث الثامن: فى **انتفاع الأولاد بصلاح آبائهم** في **الدنيا**

لقد ذكرنا أن صلاح الأباء ينفع ذرياتـهم في الآخرة، وثبت أيضا أن صلاحهم ينفع أولادهم في الدنيا كما ينفعهم في الآخرة، فقد قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{وكان أبوهما صالحا}:** فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقرّ عينه بـهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهم صلاحا .

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: وكان أبوهما صالحا: ظاهر اللفظ أنه والدهما دنية [1].

وقيل: هو الأب السابع قاله جعفر بن محمد. وقيل: العاشر فحفظا فيه. وكان يسمى كاشحا، قاله مقاتل . ففيه ما يدل على أن الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا عنه، وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته اهـ .

---

[1] قوله دنية، يقال: هو ابن عمه دِنْيا ودِنْيَةً أي لَحاً، يعنى: رحما أدَنى إليه من غيره .

المبحث التاسع: في **أن ذنوبَ الأصول وعصيانهم لا يضر الفروع**

اعلم أن ذنوب الأصول وعصيانهم لا يضر فروعهم في الآخرة، وأما في الدنيا فقيل: يضر عصيان الأصول فروعهم، ففي حاشية عبد الحميد الشرواني على تحفة المحتاج(١) . قيل: أول من حاض أمنا حواء لما كسرت شجرة الحنطة وأدمتها قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأدمينك كما أدميت هذه الشجرة. ولما أدمت الشجرة عاقب الله بناتها بالحيض والولادة والنفاس قال الله تعالى: يا داود أنا الرب المعبود أعامل الذرية بما فعل الجدود اهـ .

قال علي بن سلطان القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح في باب الحيض(٢) قال ابن الرفعة: قيل: إن أمنا حواء لما كسرت شجرة الحنطة وأدمتها قال الله: لأدمينك كما أدميتها، وابتلاها بالحيض هي وجميع بناتها إلى الساعة اهـ .

وأما ذنوب الفروع فإنها لا تضر أصولهم في الدنيا وفى الآخرة .

وحاصل ما ذكرناه أن صلاح الوالد ينفع أولاده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن عصيانه قد يضر أولاده في الدنيا لا في الآخرة، وصلاح الأولاد ينفع أصولهم المؤمنين في الآخرة، وعصيان الأولاد لا يضر أصولهم في الدنيا والآخرة، وكذلك ينفع صلاح الزوج زوجته في الآخرة. والله أعلم .

---

[1] حاشية عبد الحميد في باب الحيض .

[2] مرقاة المفاتيح جـ ٢ص٩٦ .

فائدة: فى **انتفاع المؤمنين باستغفار الملائكة ودعائهم لهم**

وكذلك تنفع الملائكة مِن حملة العرش ومَنْ حوله للمؤمنين، فإنهم يستغفرون لهم ويسألون لهم الوقاية عن عذاب الجحيم، وأن يدخلهم وآباءهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن وهي كما في تفسير القرطبي[1] قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل فالملائكة أرحم لبني آدم من بعضهم لبعض، قال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان وتلا هذه الآية [2].

وقال ابن كثير: وهذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام فإنهم كانوا يؤمنون دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب كما ثبت في صحيح مسلم إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين ولك بمثله .

وفي تفسير القرطبي أن خلف بن هشام البزار القاري قال: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت ويستغفرون للذين آمنوا بكى ثم قال: ياخلف ما أكرم المؤمن على الله نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له. قال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه: افهموا هذه الآية فما في العالم جنة أرجى

---

[1] قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: **{ربنا وأدخلهم جنات عدن}**: يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن؟ قال: قصور من ذهب يدخلها النبيون . الخ.

[2] يعني: **{الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا}** الآية.

منها، إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة[1] وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين .

وقال ابن كثير: قال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله يقولون: الملائكة خير من ابن الكواء هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر. وفي رواية أخرى: والملائكة يسبحون بحمد ربـهم ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين، بيانه في سورة الغافر- **{ويستغفرون للذين آمنوا}**.

---

[1] لا يقال: إن المستغفرين للمؤمنين هم حملة العرش ومن حوله فقط لما في آية الشورى- **{والملائكة يسبحون** بحمد **ربـهم ويستغفرون** لمن في **الأرض}** . ويحتمل أن يقال: إن آية سورة غافر تخصص الإطلاق في آية سورة الشورى، والعلم عند الله تعالى .

الفصل السادس: في صلة الأرحام والإحسان إليهم

لقد ذكرنا كثيرا من مساوي العصبية والقبلية ووجوب مقاطعة من حآدّ الله ورسوله ولوكان من أقرب الناس كالآباء والأبناء، ووجوب التبري من أعمال العشيرة المتمردة العاصية لله ولرسوله، وذكرنا أيضا الوعيد الشديد الوارد فيمن أحب قرابته واختارها من الله ورسوله، ومعلوم أن طبع الإنسان مجبول على التفريط والإفراط والخير فيما بينهما، فخفت أن يتخيّل متخيّل أن صلة الأرحام وإعانتهم على الخير يكون تعصبا، فيتحرّج عن ذلك ويقع في ورطة قطيعة الرحم خوفا من الوقوع في التعصب المذموم، فأحببت أن ألحق بذلك فضيلة صلة الأرحام والإحسان إليهم، وأذكر الوعيد الشديد في قطيعتها.

قال الله تعالى: **{واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم }** وقال تعالى: **{واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام}** وقال تعالى: **{والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل}**

وفي رياض الصالحين للإمام النووي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يومن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، متفق عليه .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من

القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلكِ لكِ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأوا إن شئتم **{فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا** في **الأرض وتقطعوا أرحامكم أؤلئك الذين لعنهم** الله **فأصمّهم وأعمى أبصارهم}** متفق عليه.

وفي رواية للبخاري: فقال الله تعالى: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته .

وعنه رضي الله عنه أن رجلا قال: يارسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويسيئون إلىّ وأحلم عنهم ويجهلون علىّ، فقال: لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تسفّهم المَل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك، رواه مسلم، وتسفّهم بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء، والملّ بفتح الميم وتشديد اللام، وهو الرماد الحارّ، أي كأنما تطعمهم الرماد الحارّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحارّ من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه، والله أعلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه، متفق عليه، ومعنى ينسأ له في أثره أي يؤخر له في أجله وعمره .

وعنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلةَ المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه

الآية: **{لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}** قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: **{لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}** وإن أحب مالي إليّ بيرحاء، وإنـها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يارسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ!! ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبوطلحة: أفعل يارسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه، متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَها، رواه البخاري، وقطعت بفتح القاف والطاء، و رحمه : مرفوع.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله، متفق عليه .

وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحرث رضي الله عنها أنـها أعتقت وَلِيْدَة ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أَشَعَرتَ يارسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: أو فعلت؟ قالت: نعم، قال: أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظمَ لأجركِ، متفق عليه .

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تصدقن يا معشر النساء ولو من

حلّيكنّ، قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود، فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالصدقة فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزئ عني، وإلا صرفتها إلى غيركم، فقال: عبد الله: بل ائتيه أنت، فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتي حاجتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره أن امرأتين بالباب تسألانكَ أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هما؟ قال: امرأة من الأنصار، وزينب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الزيانب هي؟ قال: امرأة عبد الله، فقال رسول الله: لهما أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة، متفق عليه .

وعن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل أن هرقل قال لأبي سفيان: فما ذا يأمركم به؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، متفق عليه .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، وفي رواية ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

وفي رواية: فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما، أو قال: ذمة وصهرا، رواه مسلم. قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل صلى الله عليه وسلم منهم، والصهر كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية:**{وأنذر عشيرتك الأقربين}** دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعمّ وخصّ وقال: يابني عبد شمس، يابني كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يافاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها رواه مسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم: ببلالها هو بفتح الباء الثانية وكسرها، والبلال الماء، ومعنى الحديث: سأصلها، شبّه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء، وهذه تبرد بالصلة .

وعن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه أن رجلا قال: يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم متفق عليه .

وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإنه بركة، فإن لم يجد تمرا فالماء فإنه

طهور، وقال: الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان، صدقة وصلة، رواه الترمذي وقال: حديث حسن .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الخالة بمنـزلة الأم، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح .

وعن عمرو بن عبسة قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم يعني بمكة في أول النبوة، فقلت له: ما أنت؟ قال: نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله تعالى، فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء، وذكر تمام الحديث .

وعن أبي عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول: إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها، متفق عليه . واللفظ للبخاري. انتهى ما نقلته من رياض الصالحين [1].

و قال البخاري في الأدب المفرد حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا ضمضم بن عمرو الحنفي قال: حدثنا كليب بن منفعة قال: قال جدي: يارسول الله من أبرّ؟ قال: أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذاك، حق واجب ورحم موصولة .

وعن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله جل وعز: أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم، واشتققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بَتّتّه.

---

[1] رياض الصالحين في باب بر الوالدين وصلة الأرحام .

وعن ابن عمر قال: من اتقى ربه ووصل رحمه نسئ له في أجله، وثري ماله، وأحبه أهله .

وعن أبي أيوب سليمان مولى عثمان بن عفان قال: جاءنا أبو هريرة عشية الخميس ليلة الجمعة فقال: أحرج على كل قاطع رحم لمّا قام من عندنا، فلم يقم أحد حتى قال ثلاثا، فأتى فتى عمة له قد صرمها منذ سنتين، فدخل عليها فقالت له: ياابن أخي ماجاء بك؟ قال: سمعت أبا هريرة يقول: كذا وكذا، قالت: ارجع إليه فسله لم قال ذاك؟ قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن أعمال بني آدم تعرض على الله تبارك وتعالى عشية كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم.

وعن المقدام بن معديكرب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب .

وعن ابن عمر ما أنفق الرجل على نفسه وأهله يحتسبها إلا آجره الله تعالى فيها، وأبدا بمن تعول، فإن كان فضلا فالأقرب الأقرب.

وعن عبد الله بن أبي أوفى يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الرحمة لا تنـزل على قوم فيهم قاطع رحم.

وعن محمد بن جبير بن مطعم أن جبير بن مطعم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة قاطع رحم .

وعن سعيد بن سمعان قال: سمعت أبا هريرة يتعوذ من إمارة الصبيان والسفهاء، فقال سعيد بن سمعان فأخْبَرَنِي ابن حسنة الجهني أنه قال لأبي

هريرة ما آية ذلك؟ قال: أن تقطع الأرحام ويطاع المغوى ويعصى المرشد.

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي .

وعن البراء رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فقال: يانبي الله علمني عملا يدخلني الجنة، قال: لئن كنتَ أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة وفك الرقبة، قال: أوليستا واحدا؟ قال: لا، عتق النسمة أن تعتق النسمة، وفك الرقبة أن تعين على الرقبة .

وعن ابن عمر رأى عمر حلة سِيَرَاَءَ[1] فقال: يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفود إذ أتوك، فقال: ياعمر إنما يلبس هذه من لا خلاق له، ثم أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم منها حلل، فأهدى إلى عمر منها حلة، فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، بعثت إليّ هذه وقد سمعتك قلت فيها ما قلتَ، قال: إني لم أهدها لك لتلبسها، إنما أهديتها إليك لتبيعها أو لتكسوها، فأهداها عمر لأخ له من أمه مشرك .

وعن ابن عباس أنه قال: احفظوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها تشهد له بالصلة إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان قطعها. هذا بعض حديث اختصرته، انتهى ما نقلته من الأدب المفرد .

---

[1] نوع من البرود يخالطه حرير .

الفصل السابع: في التعصب الطائفي

وفيه مباحث ثلاثة وفائدة وخاتمة

المبحث الأول: في حكمه والتحذير عنه

المبحث الثاني: فيما ورد في افتراق هذه الأمة على فرق كثيرة

المبحث الثالث: في النهي عن التوغل والتنطع في علم الكلام وحمل العوام على أمور منه لا تبلغها عقولهم

المبحث الأول: فى حكمه والتحذير عنه

اعلم أن التعصب كما يكون بين الشعوب والقبائل كذلك يكون بين الطوائف المختلفة في العقائد والمذاهب والآراء، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، وقد وقع هذا فعلا كما أخبر به المعصوم صلى الله عليه وسلم، فافترقت الأمة شيعا وطوائف وأحزابا متفرقة وكل حزب بما لديهم فرحون .

وتتعصب كل طائفة لما تدين به، وَتدعِي أنه الحق وأنـها الفرقة الناجية المتمسكة بالكتاب والسنة، وأن من سواها هم فرق الضلال، فيحقر بعضهم بعضا ويزدريه، ويكون بينهم الحقد والشحناء، والعداوة والبغضاء، كأنـهم أهل مِلتَيْنِ، وقد يُكَفرُ بعضهم بعضا فيستحلون دماءهم كما استحلت الخوارج دماء المسلمين فى خلافة أمير المؤمنين علي ابن أبى طالب وهم أول فرق الضلال من هذه الأمة، وقد قتلوا كثيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتلوا أمير المؤمنين علي بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ومن أشد هذه الفتن فتنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وقد قُتِل فيها كثير من العلماء الأكابر، وامتحن فيها الإمام أحمد بن محمد بن حنبل امتحانا شديدا، ثم رفع الله هذه الفتنة بفضله وإحسانه أيام المتوكل على الله[1]،

---

[1] قال التاج عبد الوهاب بن الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: استمرت فتنة مسئلة خلق القرآن من سنة ٢١٨ إلى سنة ٢٣٤، وقد لبثت شطرا من خلافة مأمون عبد الله بن هارون الرشيد، واستوعبت خلافة المعتصم والواثق، وارتفعت في خلافة المتوكل على الله اهـ

وكانت بعد ذلك فتن أُخْرَى، وماكانت أسبابـها إلا الاختلاف في أصول الدين، وهذا هو الاختلاف المذموم، والافتراق المشئوم،

قال الله تعالى: **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون}** وقال تعالى: **{ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأؤلئك لهم عذاب عظيم}**

والتعصب على هذا الوجه المذكور حرام شرعا بل عدّه الهيتمي من الكبائر فقال في الزواجر عن اقتراف الكبائر: من الكبائر التعصب للمذاهب والأهواء والحِقْدُ على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، وذلك مما يهلك العباد والعلماء فضلا عن غيرهم، فإن الاشتغال بالطعن في الناس وَذِكْرَ نقائصهم مما جبل عليه الطبع، فإذا خَيلَ الشيطانُ إليه أن ذلك هو الحق زاد فيه واستكثر وفرح به ظنا منه أنه يسعى في الدين، وما هو إلا ساع في اتباع الشيطان، دون اتباع المتعصبِ له من الصحابة أو مَنْ بَعدَهم، ولو اعتنى بصلاح نفسه وكان على نحو أخلاق من تعصب له لكان ذلك هو الأولى له والأحرى به، وظَن أن التعصب له بنقص الناس واحتقارهم بحبه إليه كاذب، فإنه لو كان حَيا لم يتعصب لنفسه وعفا عمن سفه عليه، فأتباعُهُ أولى بذلك منه، وكل مَن تعصب لإمام ولم يسر على سيرته فذلك الإمام هو خصمه ومن جملة الْمُوَبخِّيْنَ له، فقد قال صلى الله عليه وسلم لفاطمة وهي بضعة منه: اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا، فعليك أن تصلح باطنك وظاهرك

ولا تشتغِلَ بغيرك إلا حيث كلّفك الشرع بذلك، كأن تأمر بمعروف وتنهى عن منكر بعد استيفائك لشروطه الشرعية [1] اهـ .

وقد يقع نادرا بين بعض العلماء ما لا يليق بِعَلِي مقامهم من التعصب لمذاهبهم وطعن بعضهم على بعض كما وقع من الإمامين ابن أبي هريرة الشافعي والباقلاني المالكي في مسألة البسملة[2]، ومثل هذا نادر جدا، فإن اختلاف العلماء ومناظراتـهم في المسائل الاجتهادية مبني على طلب الحق وبحثه، وليس لهم أدنى غرض في حب الظهور والغلبة على خصمهم، وإنما قصدهم بذلك ظهور الحق على لسان من شاء الله من

---

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي جـ١ص٧٩ .

[2] قال الهيتمي في حاشيته على فتح الجواد جـ١ ص١٢١: وقع لإمامين عظيمين متكافئين في العلم والتقدم أحدهما الإمام الباقلاني المالكي، والثاني الإمام ابن أبي هريرة الشافعي، أما الأول منهما وهو الباقلاني نُقِل عنه أنه قال: يكفر من أثبت البسملة، وعن الثاني ابن أبي هريرة أنه قال: يكفر كل من نفاها .

وهاتان المقالتان بظاهرهما واطلاقهما مما يجب على كل مسلم أن يعتقد غلط قائليهما وأن هاتين الزلتين زلتان قبيحتان جدا، يجب رفضهما وعدم الالتفات إليهما كسائر زلات العلماء، وهذا كله إن لم يقولا بتأويلهما، وأما إذا قالا به فلا يبقى عليهما إلا حرج اطلاق هاتين العبارتين الموهم ما لا يقول بظاهره أحد من المسلمين .

والحاصل أن هاتين المقالتين مع عدم التأويل زلتان عجيبتان وغلطتان قبيحتان فيجب على كل مسلم طرح الالتفات إليهما وأن لا يرفع لهما رأسا ولا يقيم لهما وزنا، انتهى ما نقلته من حاشية الهيتمي على فتح الجواد بتصرف قليل. ثم ذكر الهيتمي تأويلا حسنا لمقالتيهما فانظره هناك .

ومعلوم أن مذهب الإمام الشافعي أن البسملة آية من الفاتحة لا تصح الصلاة بدونـها، والمالكية على خلاف ذلك، فكأن كُلاًّ من الإمامين رحمهما الله تعصّب لمذهبه وأتى بعبارة ظاهرها الإفراط والتشديد، والله أعلم .

عباده، فتراهم يرجعون حالا عن رأيهم إذا رأوا دليل مناظرهم أقوى وأرجح من دليلهم[1]، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ، وما كلمت أحدا قط إلا ولم أبال بَينَ الله الحقَ على لساني أو لسانه .

---

[1] روى ابن السبكي في طبقات الشافعية بسنده أن إسحق بن راهوية ناظر الشافعي وأحمدُ بن حنبل حاضر في جلود الميتة إذا دبغت، فقال الشافعي: دِباغها طهورها، فقال إسحاق: ما الدليل؟ فقال الشافعي: حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن ميمونة أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بشاة ميتة، فقال: هلاّ انتفعتم بجلدها؟، فقال إسحاق: حديث ابن عكيم "كتب إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بشهر لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب" أشبه أن يكون ناسخا لحديث ميمونة، لأنه قبل موته بشهر، فقال الشافعي: هذا كتاب وذاك سماع، فقال إسحاق: إن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر وكان حجة عليهم عند الله، فسكت الشافعي، فلما سمع ذلك أحمد بن حنبل ذهب إلى حديث ابن عكيم وأفتى به، ورجع إسحاق إلى حديث الشافعي فأفتى بحديث ميمونة . ثم قال ابن السبكي: قد يظن قاصر الفهم أن الشافعي انقطع في هذه المناظرة مع إسحاق وليس الأمر كذلك، ويكفيه أن يتأمل رجوع إسحاق إلى قول الشافعي، فلو كانت حجته قد نـهضت على الشافعي لما رجع إليه، ثم تحقيق هذا أن اعتراض إسحاق فاسد الوضع ولا يقابَل بغير السكوت، بيانه أن كتاب عبد الله بن عكيم كتاب عارضه سماع ولم يُتَيَقنْ أنه مسبوق بالسماع وإنما ظُن ذلك ظنا لقرب التاريخ، ومجرد هذا لا ينهض بالنسخ، أما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر فلم يعارضها شيء بل عضدتـها القرائن وساعدها التواتر الدّال على أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالدعوة إلى ما في هذا الكتاب، فلاح بـهذا أن السكوت من الشافعي تسجيل على إسحاق بأن اعتراضه فاسد الوضع فلم يستحق عنده جوابا، وهذا شأن الخارج عن المبحث عند الْجَدَلِيّيْنَ، فإنه لا يُقابَلُ بغير السكوت، ورب سكوت أبلغ من نطق، ومن ثَمّ رجع إليه إسحاق، ولو كان السكوت لقيام الحجة لأكدّ ذلك ما عند إسحاق اهـ

فانظر إلى انصاف إسحاق رحمه الله وكيف رجع حالا إلى ما رآه حجة أقوى من حجته، وهكذا شأن الأئمة والعلماء العاملين رضي الله عنهم أجمعين .

وهذا نـهاية الاخلاص وحسن النية وإرادة وجه الله تعالى في أعماله رحمه الله تعالى، وهذا هو دأب العلماء الصادقين سلفا وخلفا رحمة الله عليهم .

وأما اختلاف المتهدين في المذاهب والمسائل الاجتهادية فلا بأس به، بل هو رحمة كما فسروا به حديث : اختلاف أمتي رحمة .

المبحث الثاني: فيما ورد في **افتراق هذه الأمة على فرق كثيرة**

ألف الشهرستاني في الفِرَقِ كتاب الملل والنحل والشيخ عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي كتابا نفيسا سماه الفَرْق بين الفِرَقْ

وفي الدر المنثور في التفسير المأثور للحافظ السيوطي: أخرج ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت بنو اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: يارسول الله ومن هذه الواحدة؟ قال: الجماعة، ثم قال: {**واعتصموا** بحبل **الله** جميعا **ولا تفرقوا**}

وأخرج أحمد وأبو داود عن معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: كيف يَصْنَعُ أهل هذه الأهواء الخبيثة بـهذه الآية في آل عمران: **{ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات}** قال: نبذوها ورب الكعبة وراء ظهورهم.

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: يأتي على أمتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى لو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في أمتي مثله، إن بني اسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني وابن المنذر عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا حتى عدّ سبعا ما حدثتكموه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في الإبانة والخطيب في تاريخه واللالكائي في السنة عن ابن عباس في هذه الآية قال: **{تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة .

وأخرج أبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ **{يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل الجماعات والسنة، وتسود وجوه أهل البدع والأهواء .

وأخرج الخطيب في رواية مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة في قوله: **{فأما الذين اسودت وجوههم}** قال: هم الخوارج .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وأبو نصر السجزي في الإبانة، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب أن رسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع، وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، ليست لهم توبة، ياعائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني برآء .

وأخرج ابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبي غالب أنه سئل عن هذه الآية: **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}** فقال: حدثني أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنـ ـهم الخوارج .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة: {**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا**} قال: هم الحرورية .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}** قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن منذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الأحوص في قوله **{لست منهم في شيء}** قال: بريء منهم نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن منيع في مسنده وأبو الشيخ عن أم سلمة قالت: لَيتقِين امرؤ أن لا يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ثم قرأت هذه الآية **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء}** .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أفلح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث، ضلالة الأهواء، واتباع الشهوات في البطن والفرج، والعجب، انتهى ما نقلته من الدر المنثور في التفسير بالمأثور [1].

---

[1] قال الشيخ عبد القاهر في الفرق بين الفرق: للحديث الوارد على افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الحدري، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع وغيرهم .

فائدة في أن الفرقة الناجية هى الأشاعرة والماتريدية

صرح العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والصوفية أن الفرقة الناجية التي تسير على نـهجه صلى الله عليه وسلم وعلى نـهج أصحابه الأشاعرة والماتريدية، وهما المعروفان عند العلماء المتقدمين والمتأخرين بأهل السنة والجماعة، ولا عبرة بمن شذّ وانفرد ممن تسمى بـهذا الاسم في القرون الأخيرة، وقد ذكرنا في حديثى ابن عباس وأبي سعيد الخدري أن الفِرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة، وهما كفرقة واحدة، إذ ليس بينهما فَرق كبير في العقيدة، ولا ُيكفر بعضهم بعضا، ولا ُيبدعه كما يأتي.

والأشاعرة أكثر من الماتريدية، فقد قال التاج السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: أنا أعلم أن المالكية كلهم أشاعرة لا أستثني أحدا، والشافعية غالبهم أشاعرة ما أستثني إلا من لحق منهم بتجسيم أو اعتزال ممن لا يعبأ الله به، والحنابلة أكثر فضلاء متقدميهم أشاعرة لم يخرج منهم عن عقيدة الأشعري إلا من لحق بأهل التجسيم، وهم في هذه الفرقة من الحنابلة أكثر من غيرهم. والحنفية أكثرهم أشاعرة أعني يعتقدون عقد الأشعرية لا يخرج منهم إلا من لحق منهم بالمعتزلة.

وقال ابن عساكر حافظ هذه الأمة الثقة الثبت: هل من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق للأشعري ومنتسب إليه وراض بحميد سعيه في دين الله مثن بكثرة العلم عليه غير شرذمة قليلة، تضمرالتشبيه وتعادي كل موحد يعتقد التنـزيه.

وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدة أبي الحسن الأشعري اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب، وشيخ الحنفية جمال الدين الحصيري. انتهى مانقلته من طبقات الشافعية الكبري ملخصا.

وذكرت في كتابي إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين من أسماء بعض أعيان الأشاعرة أكثر من مائة من الحفاظ والمفسرين والفقهاء وغيرهم، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني، وأبوبكر القفال، والحاكم أبو عبد الله الحافظ، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني، والحافظ الأعرج، والإمام الحافظ أبو بكر البيهقي، والحافظ أبو ذر الهروي، وإمام الحفاظ الخطيب البغداي، والأستاذ أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، وأبو □إحاقجسلشيرازي صاحب المهذب الذي شرحه النووي با لموع، وإمام الحرمين، وتلميذه الإمام الغزالي، والحافظ ابن عبد البر، والحافظ ابن عساكر[١]، والقاضي عياض، وفخر الدين الرازي، وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام، وتقي الدين بن دقيق العيد، والإمام النووي، والإمام السبكي، والحافظ إسماعيل بن كثير صاحب التفسير المشهور والبداية والنهاية، وأمير المؤمنين في الحديث أبو الفضل ابن حجر العسقلاني، وشيخه الحافظ العراقي، والحافظ السخاوي، والحافظ السيوطي، والحافظ القسطلاني، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الفتوحات الكثيرة المشهورة، ففي غاية البيان في تنـزيه الله عن

---

[١] قال النووي في ابن عساكر: هو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا .

الجهة والمكان[١]: قال السيوطي في كتابه الوسائل إلى مسامرة الأوائل[٢]: لما ولي صلاح الدين بن أيوب أمر المؤذنين في وقت التسبيح أن يعلنوا العقيدة الأشعرية، فوطف المؤذنين على ذكرها كل ليلة إلى وقتنا هذا اهـ أي وقت السوطي المتوفى ٩١١هـ انتهى ما في غاية البيان .

وفي الفتوحات الربانية على الأذكار النووية[٣]: لما ولّي صلاح الدين بن أيوب وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعري أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة الأشعرية التي تعرف بالمرشدية فواظبوا على ذكرها كل ليلة اهـ .

فينبغي للمسلم المنصف أن يرضى لنفسه بما رضي به هؤلاء وأضعافُ أضعافِهم من الأئمة لأنفسهم، وأن يثق بـهم في العقيدة كما وثق بـهم في نقل الشريعة من الأحاديث النبوية وغيرها، فهم من الذين قال الله فيهم: **{فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.**

والرجاء أن يجعل الله الأشاعرة ممن يحبهم ويحبونه، فقد روى الحافظ ابن عساكر في تبيين كذب المفتري[٤] بسنده عن عياض الأشعري قال: لما نزلت **{فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}** أومأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي موسى رضي الله عنه فقال: هم قوم هذا .

قال البيهقي: وذلك لما وُجِدَ فيه من الفضيلة الجليلة، والمرتبة الشريفة، للإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، فهو من قوم أبي موسى

[١] ص٩٦
[٢] ص١٥
[٣] ج٢ص١١٣
[٤] ص٥٠

وأولادِه الذين أوتوا العلم ورزقوا الفهم مخصوصا من بينهم بتقوية السنة وقمع البدعة بإظهار الحجة ورد الشبهة، والأشبه أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جعل قوم أبي موسى من قوم يحبهم الله ويحبونه لما علم من صحة دينهم وَعَرَفَ من قوة يقينهم. فمن نحا في علم الأصول نحوهم وتبع في نفي التشبيه مع ملازمة الكتاب والسنة قولهم جُعِل من جملتهم وَعُد من حسابـهم بمشيئة الله وإذنه، أعاننا الله تعالى على ذلك بمنه، وختم لنا بالسعادة والشهادة بجوده، وليعلم المنصف من أصحابنا صنع الله تعالى في تقديم هذا الأصل الشريف لما ذخر لعباده من هذا الفرع المنيف الذي أحيا به السنة وأمات به البدعة وجعله خَلَفَ حَقٍّ لِسَلَفِ صِدْقٍ .

ومن أراد أن يطّلع سِيَرِ الإمام الأشعري وحقيقة العقيدة المنسوبة إليه فعليه بكتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري اهـ .

فالحاصل أن الأشاعرة والماتريدية هما أهل الحق في الحقيقة، وإن ادعت كل فرقة أنـها على الحق، وأن غيرها على الباطل واستدلت على ذلك بأدلتها وأطالت في الاحتجاج على ذلك ألسنتها، وقد رأيت كتابا يذكر دليل كل فرقة وحجة كل طائفة من الآيات والأحاديث النبوية وأقوال الأئمة، فإذا طالع هذا الكتاب ونحوه طالبو العلم المبتدئون يخاف عليهم أن يستحسنوا بعض آراء الفرق الضالة ويتأثروا بـها، فتميل إليها قلوبـهم، فلهذا منع العلماء من مطالعة الكتب المشحونة بآراء الفلاسفة

كالمطالع والمقاصد وأمثالهما، ومنعوا أيضا من مطالعة كتاب "الملل والنحل" لابن حزم الظاهري[١].

ولو ذهب ذاهب من المشرق إلى المغرب وطاف في الأقطار والآفاق كما طاف فيها ابن بطوطة ليعلم علما حقيقيا الفرقة الناجية من هذه الفرق التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلم وتحقق أنـها الأشاعرة والمأتريدية اللتان هما كفرقة واحدة، لقلة اختلافهما في المسائل، فقد قال المحقق التاج عبد الوهاب السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: إنه لا خلاف بين الأشاعرة وبين المأتريدية أصحاب أبي حنيفة إلا في ثلاث عشرة مسألة فقط، ولا يبدع بعضهم بعضا فضلا عن التكفير، وقال ابن السبكي أيضا في نونيته التي يعارض فيها نونية ابن زفيل:

يا صاح إن عقيدة النعمان والأشعـري حقيقـة الاتقـان
فكلاهما والله صاحب سنة بـهـدى نبي اللـه معتقـدان
لا ذا يبدع ذا ولا هذا وإن تحسب سواه وهمت في الحسبان
والخلف بينهما قليل أمره سهـل بلا بدع ولا كـفـران

---

١ قال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: وكتاب الملل والنحل لابن حزم من شر الكتب، وما برح المحققون من أصحابنا ينهون عن النظر فيه، لما فيه من الإزراء بأهل السنة، ونسبة الأقوال السخيفة إليهم من غير تثبت عنهم، والتشنيع عليهم بما لم يقولوه اهـ.

المبحث الثالث: في النهى عن التوغل والتّنطّع في علم الكلام، وَحَمْلِ العوام على أمور منه لا تبلغها عقولهم

قال الغزالي في الإحياء: قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول: لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، وقال أيضا: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد .

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدا، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل، وبالغ في ذمه حتى هجر الحرث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث .

وقال مالك رحمه الله: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أَيَدَعُ دِيْنَهُ كل يوم لدين جديد؟.

وقال الحسن لا تجادلوا أهل الأهواء، ولا تجالسوهم، ولا تسمعوا منهم، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديد فيه وقالوا: ما سكت عنه الصحابة مع أنـهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون، أي المتعمقون في البحث والاستقصاء[1] اهـ .

---

[1] إحياء علوم الدين، في الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الإرشاد من كتاب قواعد العقائد .

وقال الحافظ البيهقي في الأسماء والصفات أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن العباس الضبي يقول: سمعت أبا الفضل البطاييني ونحن بالري يقول: وكان أبو الفضل يحجب بين يدي أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إذا ركب قال: خرج أبو بكر محمد بن إسحاق يوما قرب العصر من منـزله فتبعته وأنا لا أدري أين مقصده إلى أن بلغ باب معمر فدخل دار أبي عبد الرحمن ثم خرج وهو منقسم القلب فلما بلغ المربعة الصغيرة وقرب من خان مكي وقف وقال لمنصور الصيدلاني: تعال فعدا إليه منصور فلما وقف بين يديه قال له: ما صنعتك؟ قال: أنا عطار، قال: تحسن صنعة الأساكفة، قال: لا، قال: تحسن صنعة النجارين، قال: لا، فقال لنا: إذا كان العطار لا يحسن غير ماهو فيه فما تنكرون على فقيه راوي حديث أنه لا يحسن الكلام، وقال لي مؤدبي –يعني المزني رحمه الله- غير مرة: كان الشافعي رضي الله عنه ينهانا عن الكلام، قلت: أبو عبد الرحمن هذا كان معتزليا، ألقى في سمع الشيخ شيئا من بدعته وصور له من أصحابه يريد أبا علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي، وأبا بكر أحمد بن إسحاق الضبي، وأبا محمد يحيى بن منصور القاضي، وأبا بكر بن أبي عثمان الخيري رحمهم الله أجمعين أنـهم يزعمون أن الله تعالى لا يتكلم بعد ما تكلم في الأزل حتى خرج عليهم وطالت خصومتهم وتكلم بما يوهم القول بحدوث الكلام، مع اعتقاده قدمه، ثم إن أبابكر أحمد بن إسحاق الفقيه أملى اعتقاده واعتقاد رفقائه على أبي بكر بن أبي عثمان وعرضه على محمد بن إسحاق بن

خزيمة، فاستصوبه محمد بن إسحاق وارتضاه واعترف فيما حكينا عنه بأنه إنما أتى ذلك من حيث إنه لم يحسن الكلام .
وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد الزاهد البوشنجي يقول: دخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي بالري، فأخبرته بما جرى بنيسابور بين أبي بكر بن خزيمة وبين أصحابه، فقال: ما لأبي بكر والكلام؟ إنما الأولى بنا وبه أن لا نتكلم فيما لم نتعلمه، فخرجت من عنده حتى دخلت على أبي العباس القلانسي فقال: كأن بعض القدرية من المتكلمين وقع إلى محمد بن إسحاق فوقع لكلامه عنده قبول، ثم خرجت إلى بغداد فلم أدع بـ ـها فقيها ولا متكلما إلا عرضت عليه تلك المسائل، فما منهم أحد إلا وهو يتابع أبا العباس القلانسي على مقالته، ويغتم لأبي بكر محمد بن إسحاق فيما أظهره . قلت: القصة فيه طويلة، وقد رجع محمد بن إسحاق إلى طريقة السلف وتلهف على ما قال، والله أعلم [1].
قلت : وهذا الذم في الكلام محمول على التوغل والتنطع فيه، وأما تَعلم مختصرات كتب العقيدة مثل قواعد العقائد للغزالي ونحوه فلا بأس به، بل هو إما فرض كفاية أو فرض عين .
ومنع العلماء رحمهم الله تشويش العوام وتشكيكهم بما لا تحمله عقولهم من علم الكلام، وعدّ ذلك ابن حجر الهيتمي من الكبائر، فقال رحمه الله في كتابه : الزواجر عن اقتراف الكبائر: ومن الكبائر حمل العوام ومن لم يمارس العلوم على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا تبلغها

---

[1] الأسماء والصفات للبيهقي، في باب الفرق بين التلاوة والمتلوّ .

عقولهم، وهذا مضلة لهم لأنـهم يتشكّكون به في أصول الدين، بل ربما تخيلوا في الله تعالى ما هو متعال عنه فيصير به كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور لغلبة حمقه وقلة عقله، وأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في نفسه، وأثبتهم عقلا أشدهم اتـهاما لنفسه وظنه، وأحرصهم على السؤال من العلماء العاملين والأئمة المهتدين اهـ .

وألف الإمام الغزالي رحمه الله تعالى كتابا سماه : إلجام العوام عن علم الكلام .

قلت: وفي علم الكلام مسائل كثيرة لا ينبغي أن تذكر في مجالس العوام وحضرتـهم، ولله در القائل:

ومن منح الجهال علما أضاعه   ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وكثيرا ما كان مشايخنا رحمهم الله يقولون لنا في الدرس: هذه المسئلة لا يجوز ذكرها إلا في حالة التعليم والتعلم.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذبَ الله ورسوله .

قال الحافظ في الفتح: والمراد بقوله بما يعرفون أي يفهمون، وزاد آدم بن أبي إياس في آخره: ودعوا ما ينكرون أي يشتبه عليهم فهمه، وكذا رواه أبو نعيم في المستخرج، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت محدّثا قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة [١] .

---

[١] روى حديث ابن مسعود مسلم في صحيحه كما في "فتح الباري" للحافظ العسقلاني.

ثم قال الحافظ: وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذُ بظاهره مطلوب .

وفي صحيح البخاري أيضا: قال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وِعَائين، فأما أحدهما فَبَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هذا البُلْعُوْم[1].

وقد كثر في زماننا الـ ادلة في أسماء الله تعالى وصفاته أمام العوام، بل وفي الإذاعات وغيرها من وسائل الإعلام، وهذا فيه من الخطر ما لا يخفى، فاتقوا الله يا أولي الألباب، ولا تكونوا سببا إلى افتراق الأمة المحمدية، وانقسامها إلى طوائف مختلفة، يُضَلِلُ بعضُها البعضَ، ويتعصب كل منها إلى آراء فرقته، فيتسارعَ حينئذ الفشل وذهاب القوة والهيبة، ثم يستفيد من ذلك عدوّ الملة الاسلاميّة، قال الله تعالى: **{وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}** أعاذنا الله مما يؤدي إلى تَشَتتِ شَملنا وتفرق جمعنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله الموفق .

---

[1] ذكر البخاري هذين الحديثين في كتاب العلم من صحيحه .

الخاتمة نسأل الله حسنها

ينبغي لكل مسلم أن يجتنب مجالس المتعصبين لقبائلهم أو لآراء طوائفهم أو لألوان جنسياتهم أو لعادات بلادهم وغير ذلك من أنواع التعصب، فإنه يكثر في مجالسهم اللغو من الكلام والتنافس بما يلهي عن المهمات، ويضيع العمر والأوقات، بل لا تخلو غالبا من ارتكاب المحظورات من الكذب والبهتان، والغيبة والشتم، والحقد وغيرها من أنواع السيئات .

والغالب في مجالس أهل الأهواء والفرق المختلفة في الاعتقاد الجدال والخصومة والاحتجاج بكل دليل يظنون أنهم يتوصلون به إلى الغلبة وإفحام الخصم، ولا ينقادون للحق إذا ظهر بلسان غيرهم، بل يزدادون من ذلك عنادا وتمردا، وهذه فتنة كبيرة وآفة عظيمة، فاشية في عصرنا في كثير من البلاد والعباد، وسّببت كثيرا من التنافر والتقاطع، بين أهل الملة المحمدية . ومجالس كثير من القبائل يكثر فيها البغي والظلم كأنهم أصحاب القائل:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

ويكثر فيها الزّهو والتكبر على القبائل الضعيفة، فيستضعفونهم ويحقرونهم ويأنفون عن مساواتهم، حتى إن بعضهم جعلوا دية الرجل من القبيلة الضعيفة نصف دية الرجل من القبيلة القوية، وقد بّين أعدل الخلق صلى الله عليه وسلم أن المسلمين تتكافأ دماؤهم، فدية الرئيس والمرؤوس، والشريف والوضيع، والعزيز والذليل، والقوي والضعيف واحدة لا فرق بينهم في ذلك.

وبعضهم يمنع من أبناء القبيلة الضعيفة أن يتزوجوا بناتهم.

وأما القبائل المتكافئة في العَدَدِ والعُدةِ فيحترم بعضهم بعضا، ولا يجترؤون على ظلم أي فرد من أفرادهم وإن كان ضعيفا بنفسه، فما أشبههم بقوم شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إذ قالوا له: **{ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز}** وقال لهم: **{أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه ورواءكم ظهريا}** .

وفي الدر المنثور: روي عن ابن زيد أنه قال في تفسير هذه الآية: لو لا أن نتقِيَ قومك ورهطك لرجمناك.

وقال علي: فو الله الذي لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ، ما هابوا إلا العشيرة .

فكثير من القبائل في هذا الزمان يقدم رغبات القبيلة ومطالبها على التمسك والاعتصام بكتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فيمتثل أوامر أبناء قبيلته وزعمائها، ويستخف أوامر ربه جلّ جلاله، ولا يستحيي من مخالفة أمر خالقه وعصيانه، ولا يخاف من أليم عذابه وشديد عقابه، بل يستحيي من مخالفة أهله وعشيرته، ويخاف من لوم قومه وقطيعة قبيلته، فهم يسيرون على نهج قوم شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فليس في مجالس من هذا طبعهم منفعة عاجلة ولا آجلة، فينبغي اجتناب مجتمعاتهم ومحافلهم، فقد قال صلى الله عليه وسلم: اجتنبوا مجالس العشيرة [1].

وما يُكْتَسَبُ من مجالسهم التأثر بعاداتهم القديمة، وتقاليدهم الموروثة عن الآباء والأجداد، وكثير منها مما لا طائل تحته، فينبغي الإعراض عنها،

---

[1] رواه سعيد بن منصور في سننه عن أبان بن عثمان مرسلا، كما في الجامع الصغير .

فإن من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه[1]، بل يكون في بعضها ما يجر عضب الجبار جلّ جلاله .

وتكثر في مجالسهم الغفلة عن مصالح النفس، فإن المرء ما دام يمرح بين أبناء قبيلته يكون مطمئن القلب باستئناسهم واعتماده عليهم وثقته بـهم، فيتخيل أنه في راحة وأمن، وفي حصن حصين، ودرع منيع، فينخدع بذلك وينسى عن نفسه وعن القيام بمصالحها، فيضيع وقته ويخوض معهم ما يخوضون فيه مما لا ُيجدي حالا ولا مآلا .

فنصيحتي لنفسي ولكل منصف محب للخير التخلي عن الرذائل، والتحلي بالمحاسن والفضائل، واجتناب مجالس المبتدعة والفسقة والأراذل، وكل ُمخِلٍّ للمروءة.

وليحرص كل امرئ على مصاحبة الصالحين ومجالستهم، فإن النفوس جبلت على التأسي والتطّبع بطبيعة من تخالطهم، فقد قالوا: من جالس جانس، وقال بعض الصالحين: إن مجالسة الصالحين دواء القلوب وترياقها من القسوة، وقال الحافظ الإمام النووي في الأذكار: قال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف، والمواهب واللطائف، إبراهيم الخواص رضي الله عنه: دواء القلب خمسة أشياء، قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين .

وقال بعض الصالحين: محبة الصالحين وزيارتـهم ومجالستهم غنيمة كبرى.

---

[1] قوله: من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه" حديث حسن، رواه الترمذي وغيره .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لولا ثلاث ما أحببت البقاء، ساعة ظمإ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جّيد الكلام كما ينتقى أطايب التمر[١]. وينتقون أي يختارون.

وهذا آخر ما أردت كتابته من هذا الموضوع ورمت جمعه من مذام القبلّية والعصبّية ولواحقها مع ما قاسيت في أيام جمعه من العوارض الكثيرة والمشاكل العامة والخاصة.

والمطلوب ممن رأى فيه الخلل أن يصفح عن الزلل، لما قيل في المثل: إن مَنْ في البئر دخل لم يخرج منه بدون بلل، وقد قالوا قِدما: إن لكل عالم هَفوة، ولكل جواد كَبوة، ولكل سيف نَبوة، فما ظنك بمثلي الضعيف الكليل الهمة، القاصر الفهم، الفاتر الذهن .

أسأل الله العظيم أن يتقّبله مني بفضله العميم، وإحسانه الجسيم، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، بجاه بنيه الوسيم، عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وحسبي الله ونعم الوكيل، ولاحول ولاقوة إلا بالله العزيز الحكيم .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

وقد تمّ بحمد الله تبييضه وتحريره يوم الاثنين السادس من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦/٠٧/٠٣م

---

[١] سير أعلام النبلاء جـ٢ص٣٤٩.

المراجع والمصادر

التفاسير

١. جامع البيان للإمام محمد بن جرير الطبري

٢. تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير

٣. تفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي

٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي

٥. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي

٦. تفسير النيسابوري للإمام النيسابوري

٧. الفتوحات الإلهية على الجلالين للشيخ جمل

٨. تفسير الجلالين للإمام جلال الدين المحلي

٩. تفسير المدارك للنسفي

الأحاديث

١. صحيح البخاري للإمام البخاري

٢. صحيح مسلم للإمام مسلم بن حجاج

٣. سنن أبي داود للإمام أبي داود

٤. سنن النسائي للنسائي

٥. سنن ابن ماجه للإمام أبي عبد الله ابن ماجه

٦. سنن الترمذي للإمام أبي عيسى الترمذي

٧. مسند الإمام أحمد للإمام أحمد بن حنبل

٨. فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني

٩. شرح صحيح مسلم للإمام شرف الدين النووي

١٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام العيني

١١. إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، للحافظ القسطلاني
١٢. بذل الجهود شرح أبي داود، للعلامة المحدث خليل أحمد
١٣. التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف
١٤. كنـز العمال للعلامة علاء الدين المتّقي
١٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي
١٦. الجامع الصغير للإمام جلال الدين السيوطي
١٧. الترغيب والترهيب للحافظ المنذري
١٨. مشكاة المصابيح للتبريزي
١٩. مرقاة المفاتيح للشيخ ملا علي قاري
٢٠. المعجم الصغير للحافظ الطبراني
٢١. الفتاوي الحديثية للحافظ ابن حجر الهيتمي
٢٢. الأدب المفرد للإمام البخاري
٢٣. المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني
٢٤. السراج المنير للعزيزي
٢٥. حاشية الحفني على السراج المنير للحفني
٢٦. حاشية على سنن النسائي للحافظ السيوطي
٢٧. حاشية السندي على النسائي للسندي
٢٨. الزواجر عن اقتراف الكبائر للحافظ ابن حجر الهيتمي

التاريخ والتراجم

١. سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي
٢. البداية والنهاية للحافظ ابن كثير
٣. طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي

٤. حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم
٥. أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير
٦. تـهذيب تاريخ دمشق للشيخ عبد القادر بدران
٧. السيرة النبوية لابن هشام

الفقه

١. تحفة المحتاج بشرح المنهاج لابن حجر الهيتمي
٢. روضة الطالبين للإمام النووي
٣. مغني المحتاج للشربيني
٤. حاشية عبد الحميد على تحفة المحتاج للشيخ عبد الحميد
٥. فتح الجواد بشرح الإرشاد لابن حجر الهيتمي

التصوف

١. الإبريز لسيدي عبد العزيز الدباغ
٢. إحياء علوم الدين للإمام محمد بن محمد الغزالي

٣. الردود

١. الأسماء والصفات للحافظ البيهقي
٢. تبيين كذب المفتري لابن عساكر

اللغة

١. قاموس المحيط للفيروزأبادي
٢. تاج العروص شرح القاموس للإمام مرتضىالزبيدي
٣. لسان العرب لابن منظور
٤. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير
٥. تـهذيب الأسماء والصفات للإمام النووي

الأنساب

١. سبائك الذهب لأبي الفوز محمد أمين البغدادي

العروض

١. إرشاد الشافي على متن الكافي للشيخ محمد الدمنهوري

التقاريظ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معطينا النعم، وكافينا النقم، والمؤلف بالإسلام بين القبائل العجمّية والعربّية، ناهيا لهم عن التفرق والعصبّية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد مفرّج الكروب، ومزيل ضغائن القلوب، وعلى آله المتحلّين بالفضائل، والمتخلّين عن الرذائل، وعلى صحبه الأشدّاء على الكفار، والرحماء بينهم في جميع الأقطار، ما دعا المؤذن إلى الصلاة والفلاح، وأجيب الآذان في المساء والصباح،

أما بعد: فلما طالعت كتاب "اَلِمَنحُ الوَهْبّية ِفي ذّم القَبِلّية والعَصَبّية" وتصفّحت منه كلّ باب، رأيته قد أفاد كثيرا في موضوعه، وتفجرت الحِكم الغالية من ينبوعه، فلا عْرْوَ في ذلك، فإن مؤلفه لأزّمة التحقيق مالك، وحاوٍ للعلوم النقلّية، ومتفوق في العقلّية، وحائز في ميدان المعرفة قصبات السبق، بحيث لا يشق غُبارَه عارف ذو حذق، فهو فضيلة الأديب الفقيه، والأصوليّ النبيه، الشيخ عثمان "حِدِغْ" بن الشيخ عمر، مّتعه الله بالعافية وأطال له العمر، فقد اجتهد في تأليفه جِداً، بحيث لا َيرى أحد له ندّا، وأّيد كلامه بالدّليل، وروى مّنا الغليل، وأطال الّنفَس في البحث عن مسائله، وصاد شواردها بحبائله، ودعا فيه شعبنا إلى التعاون الأخوي، والعملِ بالكتاب وسلوكِ المنهج الّنبوى، ونـهاهم عن سفك الدماء، وعن القبلية العمياء .

فجدير بنا أن نستجيب منه الدعوة، ونطرحَ العصبّية والنخوة، استفادة ّمما جاءت به قريحته، وامتثالا بما تضمنته نصيحته. فلله دره

حكيما في حلّ مشاكلنا الغامضة، ومعالِجاً لقضايا أزمتنا بالعارضة، جزاه الله عنا خير الجزاء، وأثابه على ما قدّمه بالرضاء، وشكر أعماله، وكثّر أمثاله، إنه سميع قريب، وللدعوات مجيب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

من الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ
محمود وشهرته "الشيخ أبا" الشاشي المقدشيّ
حرّر هذا التقريظ يوم الخميس ٢٤ من جمادى
الآخرة سنة ١٤٢٧ الموافق ٢٠ من يوليو سنة ٢٠٠٦.

التقاريظ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد: فقد كان صعبا أن لا أستجيب أستاذي ومربي في مسيرة حياتي مؤلف هذا الكتاب الذي مكنه الله التوفيق بتأليف ونشر هذا المرجع الأساسي الأول في منهج تأليفه وفن صياغته العلمية حينما طلب مني قراءته وإبداء الملاحظة من محتواه فرأيت أنه عرض علمي شامل ومبسط صادر عن قلب إنسان سخر الله له بسليقّيته جمع مفردات ومعاني كتب أسلافنا من تفسير كتاب الله إلى دواوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وشروحها إلى ما تفرع عنه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل إلى كتب الفقهاء وكتب أصول الدين وأصول الفقه ثم كتب الأدب والبلاغة والرقائق وما ثبت بعد ذلك من أبواب العلم .

وإذا كان من حق الباحث بصفة عامة أن يسعد عند ما يتأكد من أن مجهوده البحثي لا يذهب سُدًى فمن حق الباحث في علوم الدين أن يشعر بسعادة أوفر إذا تأكد مكانة بحثه في قلوب وعقول القراء .

والإقبال من جانب القراء لا ينصرف لشخصية الباحث بقدر ما ينصرف موضوع البحث.

وثمرة البحث تتجلى بنفاد الطبعة الأولى والرغبة في إصدار طبعة ثانية بعد ما لقي قبولا لدى كثير من الإخوة الذين لا يعرف بعضهم بعضا ولكن تجمعهم كلمة التقوى .

فهذا المؤلف البارع اليقظ يعالج كل ما يحدث في الساحة من قضايا عقدية ودينية واجتماعية حيث لا يجد غضاضة في جمع الأدلة وضرب الأمثلة لتبشيع النـزعة القبلية أمام القاري وليترك في قلب المتقاتلين الهمجيين بصيصا من التنبيه واليقظة وليزيح عن أنفسهم وأهليهم غوائل حمية الجاهلية الأولى، ومن هذا الصراع والضياع الذي طمس أبصار وبصائر الأشبال والشيوخ .

وهذا المنثور من الكلام الحكيم يحذر من مخاطر عادة التكبر على القبائل الضعيفة وأصحاب الحرف اليدوية وانعكاسها على التدهور الشامل الذي لحق العباد والبلاد .

وهذا الكتاب يذم التعصب للعشيرة والجماعة بدون أن تراع الله إلاً ولا ذمة والإهدار لحرمة وكرامة الإنسان المسلم وإفساد النسيج الإجتماعي بألوان من الجور والظلم والمهانة .

فلهذا المؤلف الناصح الصديق في القلب حب ومنـزلة ولكتابه عظة وتذكرة، والله معطي المنن يجزيه بالحسنى وسعادة الأخرى .

الأستاذ/ عبد الرحمن حسن ورطيري

٢٠٠٧/٥/٦م

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحـة**

الموضوع **الصفحـة**